الفهرس

ـ مقبرة خمس نجوم 7
ـ حمارنا لا يرغب حمارتكم 15
1- المقدمة 15
2- المؤخرة 16
3- الوسط 19
4- خاتمة الخواتم 20
ـ محنة الغراب 23
ـ مجرد تأخير 27
ـ مناقيش بعيدة 31
ـ الطريق إلى بعكورة 37
1- الحافلة 37
2- المطرقة والمنجل 40
ـ عزرا 43
ـ المزرعة في الأعالي 49
1- العجل والقر والحمار 49
2- بسالة كلب 51
3- الحالب والمحلوب والجالب والمجلوب 53
4- الصعود إلى أعلى 57

5- العشاء والاخبار 61
6- وما الإصباح منك بأمثل 63
7- عواء في ليل طويل 65
ـ شهادة بالصوت المسموع 69
ـ رجل الثلج 75
ـ ماذا لو؟ 85
ـ القبلة الأخيرة 89
ـ غفوة التنين 95
ـ النبض والمدى 101
ـ دخان.. متصاعداً 107
ـ عصافير ملونة 111
ـ أشجار هرمان هسه 115
ـ ثلاث أقاصيص 119
1- الكأس المكسور 119
2- عينا ليفي 120
3- الجبل من الجهة الشرقية 121
ـ أحد عشر دباً ووردة 123
ـ أربع أوراق وخامسة 139
1- بيت برناردا إلزا 139
2- في الصعود إلى ضريح تروتسكي 142
3- طبيب متجول (مقطع قصصي من رواية) 143
4- يو ما ما 147
5- النهر تائهاً عن مجراه 149

مقبرة خمس نجوم

إهداء: إلى الشاعر دانييل لوفرس

حدثني قريبي القادم من الولايات أن لديه بعض الأفكار الاستثمارية التي ينوي عمل دراسات عليها قبل أن يخسر فلسا واحدا من رأس ماله، مثل دراسة الجدوى الاقتصادية، واستطلاع الرأي، والحصول على أرقام المسنين وتعداد من تجاوزت أعمارهم الخمسين من الذكور خاصة، ومتوسط دخلهم، وراح يستفيض دون أن يطلعني على أية فكرة من أفكاره حرصا على حقوق الملكية الفكرية. ولما رآني غير مهتم لحماسته الرأسمالية ونظرا لما تبقى لديه من مشاعر القرابة، بق البحصة وقال: مقبرة، مقبرة خمس نجوم في هذا البلد أفضل من تأسيس جامعة بكلفة عالية وتعقيدات الحداثة التي لن تصل إليها أية دولة من دول الشرق الأوسط، لا الكبير ولا الصغير.

فأدهشتني الفكرة حقا ورحت أسأله باهتمام عن تلك المقبرة في رأسه فراح يستعرض معرفته بالعادات والتقاليد لدينا في هذه المنطقة من العالم، وقال:

هل تعرف أننا ـ ويقصد رجال الأعمال ـ نخسر الملايين في تزمتنا بالعادات والتقاليد بدلا من أن ننشئ شركات خاصة لتقوم عوضا عنا بالمهمة؟ فقلت:كيف؟ وهنا استفاض طالبا مني الإصغاءحتى النهاية وبعد ذلك أقول له رأيي الذي لن يقدم أو يؤخر ما دمت غير شريك له لا بالفكرة ولا برأس المال.

قال: لقد لا حظت لديكم اهتماما غير عادي بالأموات عوضا عن الاهتمام بالأحياء وأن الموت كلفته لديكم عالية ماديا ونفسيا ومعنويا. فإعلانات التعازي من نعي ومشاركة عزاء وشكر لا يقرأها أحد ممن لا علاقة لهم بالمتوفى وهذا يمكن اختصار تكلفته عن طريق الهاتف النقال، فكل مشترك نقوم نحن كشركة بجمع المعلومات عنه وعن أرقام هواتف أقربائه وأصدقائه ومعارفه وزملاء عمله وجيرانه لنقوم عند وفاته بإرسال رسائل النعي وتحديد مكان وساعة الدفن تاركين لهم الرقم الممكن الاعتذار عليه، وبعد فترة نقوم تلقائيا بدعوة هؤلاء الذين تم مراسلتهم لحفل التأبين المقام على شرفه وشرف أهله وأنسبائه، سيكون بالطبع لدينا متحدثين ومقرئين ولغتهم العربية سليمة ويجيدون ما يلزم من اللغات الأجنبية ولهم زي موحد كذلك يتناسب مع حجم اشتراك المشمول بخدماتنا وسوف نريح أهله بانتداب محام من الشركة لتقسيم الإرث والممتلكات على الورثة وفق نظام يصون للمرأة حقوقها أيضا.

سوف نجعل أهل المتوفى يتفرغون للحزن وليس للمشاكل والمناكفات، كما سنصون وضعهم الاجتماعي بمواصفات للخدمة التي نقدمها كأن

نجعل للمشترك قبرا يكون موضوع حديث الناس لأيام وشهور من حيث نوعية الخط والحجر المستخدم لبناء الضريح وفسحة مزودة بالمقاعد لزواره في الأعياد والمناسبات كما سنكون لنا أفضلية باستخراج شهادات الوفاة والتبليغ عن الحالة وربما تسجيلها في الملفات وإدخالها على الحاسوب قبل الوفاة لتكون جاهزة، وبالتالي ما على الميت سوى أن يموت ويكون متفرغا لموته كي نرعى مستواه ونجعله غير منشغل سوى براحة البال وسوف نطور بالمناسبة الفن التشكيلي بالبلد إن نحن رسمنا على القبور بعض اللوحات المناسبة التي يفضلها الأهل والزوار وسنجعل كل شيء منظما في حفلات التأبين وبيوت العزاء وعلى الرقم الوطني وحسب المكانة الاجتماعية للرواد فلا يجوز أن يجلس الفقير المعوز قرب الغني الموسر حرصا على مشاعر الطرفين في هذه المناسبات.

ولما لاحظ امتعاضي وتجهمي المفاجئ استدرك قائلا أنه يقصد تنظيم العملية وعدم وجود فجوات هائلة في الاختصاص والثقافة والمستوى بين الحضور حيث لم تعد صلة القرابة العشائرية هي المعيار للربط بين اثنين مختلفين في كل شيئ سوى من اسم العائلة والحمولة في نهاية أسمائهم. فقلت له موضحا أن ليس هذا ما يزعجني ضاربا كفا بكف على طريقة استاذنا الجليل خليل السواحري طيب الله ثراه في شفا بدران حيث اختار المكان بنفسه حسب ما سمعت، وقلت هامسا: خرب بيت الشباب والله ما راح يلاقوا شيئ يعملوه عندما تباشر هذه الشركة أعمالها.

سمعني فاستفسر: أي شباب تقصد؟

طمأنته أنهم لا يفكرون بمزاحمته مثلما يزاحمون خصومهم في الانتخابات. لكنه ظل متحفزا لمعرفة هويتهم السياسية والمهنية وطبيعة عملهم بل واستفسر محتدا إذا ما كانوا قد حصلو فعلا على قطعة أرض لمشروعهم الذي عبرت عنه بضرب كفي ببعضهما البعض وبكلمة «خرب» بيت الشباب. فطمأنته أنهم ليسوا على تلك الدرجة من الدهاء التجاري ليزاحموه، لكنه ظل مصرا أن يعرف من يكونون. قلت له: لا تقلق أنت إنما أنا الذي من حقه أن يقلق الآن على رابطة لن تجد ما تفعله بعد اليوم للكتاب.

فاستبشر خيرا وانزاحت غمته فقال مبتسما: صحيح لقد نسيت أن أقول لك أننا سوف نطبع كتبا أيضا بالراحلين ونكتب عنهم كل كلام طيب وأنهم كانوا رحمهم الله مبدعين حتى ـ وابتسم ـ لو لم يكونوا كذلك وإذا كان المشترك على قد حاله تقوم شركتنا بطباعة سيرة حياته كما يكتبها الكتاب عندكم فقد لاحظت ذلك لديكم منذ سنوات وأنتم تجيدون هذه الصنعة والشهادة لله.

قلت وقد راودتني الرغبة بالاشتراك: ماذا عن مشروع الجامعة الذي حدثتني عنه سابقا؟ ألم يكن ذلك مجديا؟

فواصل وقد اختفت عن وجهه الابتسامة:

كنت محقا عندما نصحتني أن أخفي أصولي العربية وأتصرف حسب مقتضيات الجنسية الأمريكية التي خسرت لأجلها قطعة الأرض التي ورثتها

عن الوالد والتي لو ماتزال مسجلة باسمه لما اضطررت لدفع أضعاف ما بعتها به مضطرا عند عودتنا من الكويت، فقد كنت مضطرا لبيعها، واليوم أصبحت مضطرا لشرائها كي نبني الجامعة عليها نظرا لموقعها الاستراتيجي ذاك. سهوت عن نصيحتك وتصرفت بطيبة فأحالوني إلى كل ما يدخروه لنا من روتين وفي كل مرة أراجع بها يقال لي أن الوزير مشغول ولم يطلع على طلبكم بعد، وانتهاء بأسعار الأراضي ،غيرت فكرة الاستثمار تلك بما أوحى لي به وضعك أنت.

فقلت مندهشا: وما هو وضعي بالضبط؟

فقال دون تردد: جئت اليوم أزورك.

قلت وأنا أفكر حقا بمبلغ الاشتراك في مشروعه الجديد، ممن أستدينه، وكم هو، وهل سأحصل على تخفيض منه بصفة القرابة أو الماضي السحيق المشترك:

ما به وضعي؟

قال: ألم أعدك بأن تكون عضوا في مجلس إدارة الجامعة التي كنت أنوي تأسيسها لديكم؟

قلت: بلى، هذا صحيح.

قال: أدركت بعد أن سمعت من الأقارب عما انتهيت إليه أنت وغيرك في البلد أنك أول من أوحت ظروفه لي بالفكرة وبأن أكافئك ،كأول عضو مشترك دون أن تسدد لنا اشتراكاتك الشهرية، بهذه الزيارة.

لم أفهم ما رمى إليه تماما، إلا بعد أن لحظت في عينيه تعابير الأسى والعزاء والحزن الحقيقي، وكنت قبل لقائه في الفندق أظن نفسي ما زلت حيا أرزق.

لاحظ هو ما دار بخاطري فشرع ليعزيني بنفسي يتحدث عن آخرين لا أدري مقصده في ذلك، إن كان يريد إقناعي بالمشروع أم فعلا ليقوم بواجب العزاء الذي تمليه عليه صلة القرابة، والأهم أيضا، التاريخ المشترك.

قال: هل تتذكر عادل سلامة؟ ودون أن ينتظر الإجابة، واصل: كان يتنافس مع وليد الشمالية على المركز الأول، في الصف الثاني إعدادي، عام 1966، وكنت أنت، متربعا على المركز الأول، في الصف الأول إعدادي.. هل تذكرته الآن؟ حسنا لقد حمل منذ ذلك الحين إرث هزيمة الأنظمة العربية وكافح حتى أصبح طبيبا في مخيم البقعة، مع أنه لو لم يكن فلسطينيا لأصبح وزيرا للصحة في الأردن.

وقبل أن يتيح لي السؤال عن أخباره قال دون مقدمات: مات. مات دون أن تقوم رابطة الكتاب بحفل تأبين له أو لأكون منصفا نقابة الأطباء. فهل تشك للحظة أن من دأبت رابطة كتابكم العتيدة لأكثر من ست سنوات وما تزال على إقامة حفلات التأبين لهم كانوا أكثر نضالا وعلما وموهبة من كتاتيبكم الذين ليس مهما قيمة ما يكتبونه إبداعيا بقدر قيمة ما يتقاضونه على ترهاتهم من نقود. رابطة كتاب تحتفي بالموت بدل الحياة لا علاقة لها بالفنون الجميلة على الاطلاق، سواء كانت أدبا أم فنا تشكيليا أم موسيقى أم مسرحا. فهل تصدق أن 625 عضوا فيها وجدوا لانتظار التعزية بك وينتظر

بعضهم أن تبتلعك الأرض لمجرد أنه غير قادر على أن يكونك دون خسارة ممتلكاته من الأراضي كما خسرتها أنت وكما خسرتها أنا في الضفتين؟

عند هذه اللحظة بدأت أشعر أنني أيضا يتوجب علي تعزيته بوالده الذي سمعت أنه توفي في الكويت قبل أغسطس المشؤوم بسنوات ومن محدثي بدأت أدرك أن والده وضع كل ثمرة شقائه في الخليج في قطعة أرض اضطر لبيعها هو عندما وجد نفسه عاطلا عن العمل وهو المهندس قبل أن يصل الأردن عائدا من الكويت المحتلة، ومن ثم، لم يعد ممكنا أن يعود لعمله السابق في الكويت المحررة، فلم يجد بدا سوى بيع الأرض التي ورثها عن أبيه ليتمكن من السفر إلى أميركا حيث يعمل أستاذا في إحدى جامعاتها الآن ونال الجنسية.

ظل يسهب في الحديث عن الماضي بما فيه الماضي الشخصي لي في سيلة الظهر وعن أسماء لم تسعفني الذاكرة في رسم أية ملامح لها بينما كنت أنا قد بدأت أقتنع بالفكرة لأنها تحصيل حاصل حيث تقوم بمهامها الرابطة دون أن يكون لنا حصة عادلة فيها حتى في التأبين فلماذا أستكثر عليه أن يشكل مؤسسة أو شركة عصرية تعفي رابطة للكتاب من مهامها في التأبين التي يتبروز أعضاؤها في الصحف بفضلها وفضل من رحلوا كمسؤولين جنبا إلى جنب مع الوزراء وأعضاء الحكومات والأمناء العامين للوزارات. أليس البلد بعد هذا كله مقبرة للكفاءات العائدة من الخليج؟

قبل سنة كنت قد قابلته بالصدفة في محل للانترنت وقد عرفني من ملامحي أولا كوني أكبره سنا قبل أن أعرفه، وراح يتحدث لي بحماس عن

فكرة الجامعة والرسوم المخفضة لها وعن ضمانته العمل لخريجيها كونها مختصة بالتعلم عن بعد وبتكنولوجيا المعلومات وعن تصميمه لمبناها على شكل حاسوب ضخم على طريق المطار، واليوم، بعد قضائه أقل من سنة في عمان، يتحدث لي عن مقبرة!

ولو لم يتحدث عن مقبرة لتحدث عن مستشفى للطب النفسي يقدم لنزلائه خدمة غير الطعام البائس.لكنه في كل ما سمعه عني لم يكن يعرف أن عمري الأدبي يكبر الرابطة بسنتين حيث تأسست عام 1974 ولم تقبل بي عضوا فيها إلا صيف عام 2007 ولم يعرف أيضا لا هو ولا ورثة وينستون تشيرتشل أنني سجنت سنتين على ذمة لا ئحة دعوى بالشروع بالقتل مكررا ثلاث مرات كوني اتهمت بأنني دهست أصبع رجل بسيارتي وأنني ما زلت مشكوكا في أمري ومتهما بالعنف والإرهاب والجنون أو المرض النفسي لدى المحاكم الشرعية ورئيس سابق لاتحاد الكتاب العرب الذي كان مقره عمان. كل هذه العجائب السريالية لم تخطر له ولا لجورج بوش على بال، وهو يحسن الظن بالبلد إن نجح مشروعه دون أن يوصله للفحيص.

عند هذا الحد قاطعته قائلا: أنصحك للمرة الثانية، أن تغادر البلد، لأن ورثة وينستون تشيرتشل سيقيمون دعوى عليك بسرقة المرحوم وورثته، ذلك أن التاريخ نفسه سجل لهم حقوق الملكية الفكرية في وثائق كانت تعتبر سرية لأكثر من عقدين لأكثر من دولتين، ليس من ضمنها أية دولة فلسطينية. غير أنه لم يأبه لنصيحتي عندما وقف مصافحاً لي ليقول: عظم الله أجركم.

2007/9/17 - 12

1- المقدمة

السيد صاحب الكلب يعلم أو لا يعلم أن نباح كلبه المتواصل على حمارنا أستمر يومين وليلة قبل أن يخرسه أحد ما بقطعة لحم فاسد أو دجاجة معطوبة أو ما تبقى من فطائس عيد الأضحى الأخير. والقصة وما فيها أن حمارنا الأعرج لا يعرف الكثيرون عنه شيئاً غير الأقاويل. بل أننا خشية أن يلحق بنا العار لم نتطرق من قبل للأسباب الموجبة لعرجته التي نحن سبب فيها، وهذا مبرر عنايتنا به على قدم المساواة بمثل ما نعامل به ما تبقى لنا من خيول بعد أن بيع بعض منها ونفق منها الكثير في جولات خاسرة. والسيد صاحب الكلب حتى لو علم بتفاصيل الحقيقة التي غالباً ما تكون مملة لأمثاله لن يبيع كلباً من أجل حمار أعرج. قد يستبدله، هذا صحيح، بغيره من الكلاب حسب قوتها ولياقتها وخدماتها وتكلفتها، لكنه لن يستبدله بحمار، فما بالك إن كان الحمار أعرجاً! هل يعيش هو الآخر بفضل حمار أو حمارة؟ خاصة بعد أن غنم بيتاً من الثورة وأصبح لزاماً عليه حراسة أشياء كثيرة ومن ضمنها البيت المشيد على شكل مشروع فيلا

يمكن ركوبها بطابق آخر، في حي الضباط وقرب مساكن المتقاعدين منهم، في حين أننا نحن، أقصد أمثالنا، لا يجازفون بركوب حمار أعرج أو خيولاً عربية أصيلة باتت طيعة ومدجنة في إسطبلات القصور لامعة نظيفة ليس مثل خيولنا التي زججنا بها في الملاجئ والثكنات أو أطلقناها في فضاءات جنوب شرق البلاد أو شمال شرق أو جنوب غرب أو شمال غرب البلاد،بل في شرق شرق وشمال شمال البلاد أو الأمة، لا، شتان بين ركوب العقار وركوب الخيل. أما حميراً فمنذ تلك الواقعة لم نعد نركب لأن حمارنا كان أول الرافضين وعندما رفضنا نحن أن نفهم كسرنا بجهلنا ساقاً له وأصبح في صورته الحالية وسمعته الحالية وقابلاً أن يتطابق مع كل الأقاويل. صبور يذكرنا بما نحن عليه وبأقوالنا المأثورة و«إن الله مع الصابرين».

2- المؤخرة

بدأت الحكاية يا أنام ويا سامعي الكلام إن سمعوا وناموا بكثير من الزهو الذي أصاب العشيرة ،عشيرتنا، عندما تقدمت على خجل سيدة الحمار من حمولة أخرى طالبة العون في المقلب الذي شربته عندما أقدمت على شراء حمار بمبلغ زهيد وخجلت أيما خجل أن تعاينه إن كان ذكراً أم أنثى ليتبين لها أنه حمارة لا تقوى على حمل شيئ، ففكرت على طريقة بطل قصة «وجه البقرة الميتة» للراحل كبير من فكر وناضل وأشعر في بلادنا، وليس الأمين وحسب على قرميتنا بل أبو الأمين طيب الله ثراه، فقالت لنفسها، ما دام الأمر هكذا في بلداننا، ضاحك ومضحوك عليه، وبائع ومبيوع، وحمار

وحمارة، وليست خمارة. وخاسر وخسارة، فلا بد لعلاج سوء الحال والمآل أن تتصرف بشطارة فتجد سبيلاً لأن تحمل الحمارة من حمار وتلد قراً أو قرة أو قرار. ولما كان حمارنا شديد البأس شبق أيما شبق وربيان بين صهيل الخيول حيث نقول نحن في قرانا عن أنثى الحصان فرس فقد كان يناغي رغم حمرنته الفرسات البيض والحمر في مغارة أجدادنا الأوائل لا يفرق في إشهار سلاحه بين لون أو جنس أو عرق. بل وحتى ذكور الخيل التي كانت تقمعه وتحد من تطلعاته نحو إناثها تم بيعها أو التضحية بها في الميادين والساحات. ولم يبق في بيت أجدادنا الأوائل سوى حمارنا ذكراً بين ما تبقى من الخيل وصوناً لسمعة الخيل التاريخية لم تلد لنا أية فرس بغلاً لا سمح الله ولذلك قصدتنا تلك المرأة الغلبانة لحل مشكلتها حسب الاختصاص. يوم ذاك ادعى كبير البيت عندما أسرت له زوجته بالأمر أن حمارة المرأة الغلبانة عطشى وجائعة، وهي كذلك على أية حال، وأن حمارنا كذلك، وهو كذلك في كل الأحوال لأن خيولنا تأكل زاده وزواده، وإن علينا نحن الفتية المراهقين أن نسوقهما سوياً للخلاء، ففهمنا رغم صغر السن في الستينيات من القرن الماضي المسألة. وبزهو عشائري قبل أن يتحول إلى زهو تنظيمي ربتنا على ظهر حمارنا وربتنا على ظهر حمارتها بتشف عشائري أن حمارنا هو الراكب وحمارة حمولتها هي التي ستحمل قرار الود والمصالحة بين حمولتين من حمائل البلد، أي بين الحارة الشرقية والحارة الغربية أو بين عائلتين طالما سمعنا أن ثمة ثارات قديمة بينهما وأنه لولا الغلب الذي حل بالمرأة الغلبانة والكبرياء الذي كان له معنى غامض لدى حمولة المرأة بأن لا تقع علاقة غير

متكافئة بين الحمولتين حتى في ما تمتلكانه من ماشية أو دواب والزهو كذلك بالنفس لدى عشيرتنا التي ما أن خطت المرأة خطوتها الأولى بحمارتها نحونا حتى خطونا معها ولما تطلبه عشرات الخطوات نحو السهوب والبراري. لكن الأمر لم يسر حسب النوايا الطيبة وصفاء السريرة والطوية الذي أشك بوجودها حتى اليوم، فالحمار بعد أن شرب وأكل وكذلك الحمارة، لم ينشأ أي ود بينهما أو إثارة. بل أن حمارنا شنّك أذنيه لدى سماعه غزل النهيق لحمارة بعيدة لم تكن في متناول يديه، وكان في طريقه أيضاً قبل أن يشرب أو يأكل يشمشم روث حمارات أخرى كلما صادف واحدة منها في الطريق الترابي المزدان بأزهار وورود ربيع ما قبل النكسة، نكستنا، وقد خيبّ ظننا وخاب معه رجاء المرأة وتوسلها. وحينذاك أخذتنا الحمية والفزعة لامرأة استجارت بنا فقطعنا المطاريق أنا وأخوتي وأبناء عمومتي وبقوة الشقاء رحنا نضرب حمارنا دون أن يستجيب. ونقربه منها، من مقدمتها ومن مؤخرتها فلا يستجيب. أما هي فقد كانت خائفة مطواعة ولم تكن بحاجة لأية لكزة من جانبنا لتقترب من حمارنا. قال كبيرنا أيام ذاك: إنها حردانة، وكفى. وقال آخر: لا يريد والأمر ليس بالقوة. وقال ثالث: دعونا نبتعد عنهما فلربما يخجلان أو يتهيبان منا. وقال رابع وخامس وسادس أيام ذاك. آه من أيام ذاك ومن الخامس ومن السادس. انتكسنا يا سادة فماذا نفعل نحن الفتية الذين كانت أعمارنا لا تتجاوز الخامسة عشرة؟ وما العمل؟ جربنا كل الوسائل، ولم تجد نفعاً. حمارنا غير راغب بحمارتهم. والأقاويل في عموم البلد شاعت وانتشرت أن حمارنا شوهد يسير جنباً إلى جنب مع

حمارتهم. وحمولتهم شرعت حتى قبل العودة تتوعد وتهدد باغتيال الجحش والخيل وربما ذبحي أنا، إذ كانوا يعتبرونني مثال حمار جدي رحمه الله وبالاً على ورود القرية ونوارها منذ أن عدت مع أسرتي من بلاد برة ممشط الشعر حسن الهندام ومعطر الملابس وعامل تسريحة «كوكو» منذ صغري. ما العمل يا شباب؟ تساءلت. فقال المتمرسون بالسمعة العشائرية أكثر مني من أبناء العمومة: علينا بحمار آخر لأن حمارنا مقتول مقتول لا محالة. فقلت مدافعاً: لكنه لم يفعل شيئاً يستفز الحمولة الأخرى؟ فقال: حتى ولو.. فالسمعة شاعت في البلد عنه وعنها. وشرف الحمولة الأخرى أصبح مهاناً والمرأة أورطتنا. قلت أيضاً مدافعاً: لكن الحمارة لن تعشّر وهذا دليل براءة حمارنا مما قد ينسب إليه. فقال محتملاً براءتي وتحضري قليلاً: قد تحمل من حمار آخر والتهمة يأكلها حمارنا. وعدنا بخفي حنين ممطرين حمارنا باللكمات والمطاريق والعصي والرفس كأننا أصبحنا نحن الحمير الذين لم يفهموا لماذا خذلنا حمار لنا هو حمارنا. وفي طريق العودة كان أبناء الحمولة الأخرى قد نصبوا لنا كميناً بعصي أشد بأساً مما نحمله من عصي ومطاريق. وهكذا يا سادة أسفرت المعركة التي خضناها أيام ذاك عن كسر في إحدى قوائم حمارنا وعن رضوض في المؤخرة.

3- الوسط

السيد صاحب الكلب لم يفهم حتى الآن أن الحمارة مريضة، ولا السيدة صاحبة الحمارة كانت صريحة بما يكفي لتقول لنا أن حمارتها مريضة وليس لديها ثمناً لعلاجها، فقد كان العلاج مفتقداً حتى للبني آدميين أمثالنا أيا م

ذاك ولم تكن البلاد قد تطورت لدرجة أن عيادة خاصة تم إنشاؤها لعلاج الكلاب والقطط والحمير وما شابه في مدينة الفحيص الأردنية ترتادها كلاب الصويفية وعبدون والجبيهة وإن كانت مناطق أخرى مثل طبربور سائرة على طريق النهوض والتطوروالحاق. الحمارة كانت مريضة ولذلك ماتت بعد أيام قليلة من خروج الحمار مكسوراً من تلك المعركة. والمسألة باختصار أن الحمار فهم ذلك، أي كونها مريضة، قبلنا ولم يغادر مثلنا، بل ظل وفياً لما يشم ولما يحس ويفهم لوطنه، أجل، كان يمكن تلخيص الحكاية وباختصار دون نباح ودون عواء ودون تشويه سمعته على أمر لم يقترفه. لكن الحقيقة شيء ووسائل الإعلام التي تطورت شيء آخر. كان يمكن اختصار المسألة بكلمات قليلة: «حمارنا غير راغب بحمارتكم» يا سادة.

4 - خاتمة الخواتم

قال محدثي الساهر من فرط عواء الليل والمعدة:

وما علاقة صاحب الكلب بالمسألة؟

فقلت بعد أن انتهت الحكاية: فتش عن البغل

قال: وما علاقة البغل؟

قلت: إذا كانت الحكاية بكل هذا الوضوح ولا توجد بغلة أو بغل فلا وجود أساساً لصاحب الكلب. وما دمت لم تفهم العلاقات بين الناس وبين الكلاب وبين الخيول وبين الحمير فإن وجود البغل هو الذي يجعل الأمور

غامضة لأننا غائبون عن الحقيقة إن كان في عصرنا من أب أم من أم مارس أحدهما الخطيئة وكان البغل نتيجة. فما بالك والحكاية فيها ما فيها من الوطن السليب ومن السياسة والتياسة والكياسة والساسة؟

* للقصة مرجعياتها في الأدب الفلسطيني مثل مجموعة «حال الدنيا» القصصية لتوفيق زياد ورواية إميل حبيبي «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل»

ليس احتجاجا، ولا استدرار عطف. ليس استدعاء فكل من في البلد كتب استدعاءات لم تستجب أو تقرأ في الغالب. وليس تظلماً كذلك ولكنه إقرار بواقع حال. ورثت سلالتي ليس أكثر، حتى في اللون لوني أسود. واعتدت أيتها الدجاجات البيّاضّات المتربيات إعداداً فقط للذّبح، على التنبيه لوقائع مقبلة فأسمعت صوتي لمن يشتمونني وكأنني أنا الذي جلبت لهم الكوارث والمصائب والحروب والغزوات والتناحر. أنا غراب ولا أخجل من كوني غراب، فهل خجلت الديناصورات والتماسيح وأسماك القرش أولاً كي أقوم بمراجعة ذاتية لما أنا عليه منذ الأزل؟ لم أوهب موهبة العقرب على أية حال كي أقوم بلدغ نفسي مع كل حصار. فالعقرب لديه ما لديه من الكبرياء فلتجربوا قتله، حاصروه بالنار من كل الجهات وضيقوا عليه الخناق لتروا بأنفسكم ما ذا سيفعل. إنه لا، لا يمتلك أسلحة نووية وجرثومية واقتصادية ليحاربكم بها ولا يوماً كان يمتلك الدولار. لكنه يأبى عدم التكافؤ في معاركم ضده فيوجه سلاحه نحو نفسه قبل أن تغركم انتصاراتكم عليه. لا لم أوهب موهبة الضفدع لأعيش في اليابسة

وألوذ بالماء فأنا أمتلك موهبة الهواء. لا صوت جميلاً لدي كي أسمعكم إياه، فالفلسطينيون والعراقيون امتلكوا أصواتهم ووصلت استغاثاتهم للأمم المتحدة فماذا فعلتم لهم؟ بالنسبة لي لا أملك من الأمر شيئاً سوى هذا اللون وتلك السلالة وما أقوم به بفعل التكوين، فلم أدّع أنني بلبل أو عندليب، ولا تقمصت الببغاء الجميلة الألوان التي تزينون بها بيوتكم. أنا غراب ومشرد أيضاً ليس من مهماتي الانحياز لمسراتكم وأفراحكم ولياليكم الملاح. وأنا صابر رغم كل كراهيتكم لي، رغم استخدامكم لإسمي في كل ما لا يسر. وهل سرّتكم الحياة والحرية مثلي؟ هل لديكم الأجنحة التي لدي كي تطيرون من غصن إلى غصن؟ هل باستطاعتكم فرض الإقامة الجبرية عليّ؟ هل تمنعون عني فضلاتكم مما أقتات عليه وعلى ما توفره الطبيعة لي؟ أنا الغراب الأسود ليس أكثر من ذلك ولا أقل. لي عين ترى ولي حواسي وما ليس لكم. البومة أيضاً تعاني مثلي وليس العقرب أو الأفعى التي تقتلونها لتستفيدوا من سمّها أو جلدها في الدواء وفي الأحذية وفي مصنوعاتكم الجلدية الفاخرة. أنا الغراب الذي تصطادونه وتأكلونه بالخطأ. لي لحم تماماً كما للفلسطينيين والعراقيين لحم استبحتموه في المجازر والحروب ومؤتمرات القمة العربية وفي غالبية دولها الأعضاء. أنا الغراب وقد فزت بالهواء والريح والنبوءة وعدم امتلاك هوية أحوال وجوازات سفر. أنا الغراب الأسود الذي لا ينتحر وسيظل فوق رؤوسكم ليس تاجا ولا علماً لدولة أو كيان. فوق رؤوسكم ليس إكليل زهر أو تاج عرس أو صلعة لامعة أو شعراً أو هواء. أنا فوق رؤوسكم ولست في متناول أيديكم.

فوق رؤوسكم ومهرجاناتكم العسكرية وعقاراتكم وسياراتكم ليس أكثر من غراب أسود. للعقرب برج وللحوت برج وللجدي وللسرطان. ليس لي بـرج يـا سـادة، لأنني مـدركٌ أنني برجٌ بذاته قائمٌ متنقلٌ طائرٌ لكنه لا يخفي الحقيقة.

الحراس، بعيون متيقظة رصدوا تحركاتي، ردود فعلي، ملامح قامتي، خطواتي الثابتة، طريق الليمبو Limbo الذي أتيت منه، الذي سأعود فيه، غير عابئ لهذا الخطأ البسيط. الحراس الذين انفقست توقعاتهم ظلوا مشدوهين حائرين. كأنما مجرد وصولي هكذا متأخراً وقلة مبالاتي عن هذا التأخير أتلف معنى وجودهم وأبطله علي نحو مهين. فقد توقعوا احتجاجي أو إلحاحي أو ربما اعتذاري أو توسلاتي. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. توقعوا أن أستعيذ أو أن أقيم الصلاة. توقعوا أن أتذاكي قليلاً أو أن أمثل دوراً ما. هناك علي الأبواب التي يحرسونها، الأبواب المغلقة ليس لأنني وصلت أنا تحديداً ولا لأنني وصلت متأخراً، بل لأنهم يعلمون تماماً ما يحرسون ومن يحرسون وممن يحرسونها أبواب الجنة!

الحراس، ذهلوا، عندما أقفلت راجعاً دون أن أترك بالباب عريضة أو حتي استدعاء، بل دون أن أترك تظلماً ما أو مجرد استفسار. وكيف لي أن أفعل مثل ذلك وأنا أعلم أنني وصلت متأخراً؟ هناك. بل وأعلم أن

الناس، كثيرا من الناس، تسابقوا وغذوا الخطي نحوها صائمين أو ملتحين، مقصرين، وصلت عرباتهم ولورياتهم محملة بالحسنات. هناك. إلى هناك، حيث دخلوا لنيل الثواب والبركة واقتسام الخير المكتوب تحيطهم الحوريات وتناغيهم ظلال القصور والحدائق والأنهار، حيث لا ممات وإنما الخلود في جنائن الخلود. هناك، هم الآن جميعاً في حور عين والأحباب يحيطون بهم والثمرات وفائض رأس المال وما نجم عن الزكاة وفعل الخير وإطعام الطير وعدم التنكر للغير. أجل. دخلوها سالمين مكرمين غانمين حيث لا متسع لي الآن بينهم. أجل. فقد وصلت متأخراً بعض الشيء بعد أن اكتظت الطرق بمن ازدحموا علي أبوابها وتكاتفوا وتآزروا وتدافعوا في يوم النفير. لا لم أكن ساعتذاك في سابع نومة ولا كان منامي مزعجاً بالشخير. بل كنت أروض نفسي على عدم التسرع في المشي أو في الأكل أو في حتي في فعل الخير. وكان في طريقي ما يسوغ لي أن أتأخر. وكان طريقي بحد ذاته قد أصبح طريقي الذي تصادف أنه فعلاً يفضي للجنة. كنت قد صادفت ما صادفت وفعلت ما اقتنعت أنني فعلت. وسعدت أيما سعادة أنني فيه لست مزاحماً على ما ليس لي ما ليس بي وما ليس لأحد. فقد صادفت عجوزاً يائساً لم يستدل على قبره فأعنته على احتمال البلاء وقدته إلي حيث استراح وكنت أيضاً قد تأخرت قليلاً في مواراة الجثث على الطرقات بالتراب وكنت قد تأخرت فعلاً في حراسة النملة وحراسة الفراشات فوق ذات قبر وحراسة السماء السماوية اللون والبحر الغادر والشعب الثائر. كان لدي ما أفعله في الطريق، نعم الطريق، فهو لم يفض إلي مجزرة ولا إلى لا شيء، ولا إلى ليل

ولا إلى تيه أو صحراء. لكنه حقاً طريق وستدهش أنك فيه انقدت لباب بعد أن تمهل الحريق. وما كان الباب لا شيء ولا كان سراباً. فالحراس هم أيضاً إن هم إلا بشر مثلنا وبالباب ما عادوا غراباً. باب الجنة الوردي. الباب الكبير الكبير اللامع بالضوء والمضاء بالأضواء الخافتة هاهو اليوم قد امتلأ بالأسماء. وكل من فازوا في نهاية المطاف. لكنني وقد وصلت ما وصلت أدركت أنني وصلت وعن أول الطريق ربما ضعت وربما انحرفت. لكنني بعد أن فازوا بما فازوا أسلمت نفسي للسكينه والصبر وتريثت كي لا أضل طريق عودتي أو أنسى أنني فزت حقاً بالطريق. اليوم فعلاً أصبح إلى طريق فعلام العجلة والتكالب والرفيق. في طريق عودتي إلي ما لا أعلم، أدركت أنني مهما مشيت ومهما طالت الطريق قد فزت بالحياة أولاً لأنـني برغم كبر السن لست بغريق. ولا أنا مقتول ولا أنا قاتـل. ولا هبّ بأمثالي الحريق. هكذا أقفلت راجعاً أحمد الله ألف مرة ومرة أن جهنم بلا أبواب.

* AZZAMAN NEWSPAPER - - - Issue 2059 - - - Date 15 / 3 /2005 جريدة
(الزمان) ـــ العدد 2059 - - - التاريخ 15 / 3 /2005

مناقيش بعيدة

إلى رولا فتال

قالت وعيناها دافئتان بالمعنى والفهم والترقب:

• إنها قصتك، ألم تحس بذلك؟

وبقيت تنتظر ردة فعلي على عرضها المسرحي. أما أنا فأبقيت عينيّ على العرض الذي أخرجته هي وتنتظر مني الآن أن أبدي وجهة نظري به سلباً أو إيجاباً وفي نفس الوقت كنت قد أدركت من نغمة صوتها بصدق أن ثمة فهم خاص ما يزال عميقاً من نظرة عينيها ومن دفء صوتها الذي خاطبتني به عاتبة على هذا الصمت الذي أوصلني إليه العرض.أدركت ان كثيراً من المعاني الإنسانية ما تزال دفينة لديها ولم يتمكن العرض الذي أخرجته بنصه وقدرات ممثليه وطريقته من إيصال كل ما لديها إليّ أو للحضور. لذلك بقيت صامتاً طالما أن العرض يتعلق بالمرأة. وقبل أن نقول شيئاً آخر حان موعد تحرك الحافلة التي ستغادر بها وبفريقها المسرحي إلى دمشق فودعتها على أمل أن أفرغ بعد جلبة المهرجان واختلاط الحابل بالنابل مما هو غير

حقيقي وأن أتصل بها هاتفياً كي أتعرف إليها أكثر.

«إنها تجربتك، ألم تلحظ ذلك؟»

وبعد أسبوع أدرت ذات مساء أقراص الهاتف الدولي فاستجاب في الحال بسرعة تمنيت لو ترددت قليلا أو كان خطها الهاتفي مشغولاً بمكالمة أخرى.

• ألو مساء الخير

• مساء النور،

جاء الصوت طفولياً لأعرف فيما بعد أن المتحدثة على الطرف الآخر تكون إبنتها .

• ومتى ستعود الماما عمو؟

• خلال ساعة، وستأتي لنا بالمناقيش التي وعدتنا بها.

• إذن ابلغيها أنني سأتصل بعد ساعة أو بعد ساعة ونصف ريثما تأكلون المناقيش مع الشاي الساخن،

فضحكت إبنتها الكبرى مقترحة أن أتحدث أيضاً إلى أختها الصغرى فأكون قد تعرفت على العائلة بعد أن كنت قد علمت من المكالمة الأولى أن الصديقة تعيش لدى والدتها مع أطفالها دون وجود علاقة زوجية سابقة ودون عيش والد بناتها معها فازددت تفهماً لها ولم تعد علاقتي بها منذاك علاقة كاتب أو ناقد بمخرجة مسرحية. ثمة معاناة إذن وراء العرض

المسرحي تجعل القصة اثنتين في واقع تجربتها هي وربما من واقع تجربتي أنا أيضاً الذي كف منذ زمن طويل عن لعب دور الزوج في حياته المتأخرة في السن والذاهبة عميقاً في العزلة.

بعد ساعة ونصف أعدت الاتصال فاستجاب الهاتف بسرعة أيضاً.

• مرحباً عمو.. هل عادت ماما؟

و فجأة أسلمت الفتاة سماعة الهاتف لجدتها لأمها.

• مساء الخير يابني

• مساء النور.. كيف حالك وكيف صحتك؟

ثم قمت بالتعريف بنفسي فلقيت الترحيب المناسب والاعتذار عن تأخر إبنتها التي ذهبت بمفردها لإحضار المناقيش. ولم أخف قلقي رغم أنني ووالدتها حاولنا كل أن يبعث الطمأنينة في نفس الآخر حول التأخير في جلب المناقيش. فلربما التقت في طريق الذهاب أو الإياب بصديق أو صديقة وانخرطا في حديث وشجون المسرح والإخراج والمهرجانات أو الاتهامات وكل ما هو مأمول ومرتجى في نفوس وعقول وأحلام الفنانين. وهكذا أعربت محدثتي أيضاً عن شكرها لاهتمامي وعن قلقها على موازنتي الهاتفية حيث أن المكالمات الدولية عادة ما تكون مكلفة لأمثالنا عندما يتحدثون بحميمية ودفء لا يحسب للمال حساب في مثل هذه الحالات. أغلقت السماعة وقد ازداد قلقي على تأخرها.

في الساعة الثانية عشرة ليلاً اتصلت رغم أننا اتفقنا في نهاية المكالمة الثانية على أن ترن رنة واحدة على هاتفي لتشعرني بعودتها عندما تعود والمناقيش التي أشك أنها ما تزال مناقيش ساخنة صالحة للأكل الشهي في تلك الساعة. رن الهاتف عدة رنات دون أن يجيب عليّ أحد أو أن يرفع السماعة على الطرف الآخر فأرجأت الاتصال لليوم التالي معللا ذلك بأنني ربما تأخرت في الاتصال الثالث وربما ذهب الجميع في النوم وربما لا يكون هاتفهم بقادر على الإرسال الدولي. لكن هذه التعليلات كلها لم تكن مقنعة لي تماما وكانت مجرد تبريرات لما هو غامض ومقلق، خاصة وأنها المبادرة الأولى لي في الاتصال بأي كان بعد نهاية المهرجانات التي تجعلنا أقرب إلى الإفلاس المادي منا إلى الأنتعاش. وعادة ما نحقق الانتعاش الفكري والروحي ونحقق دفء الإنسان بالإنسان في حياتنا الوجدانية والفكرية والروحية التي نعيشها في الفن والثقافة دون أن نكون قادرين على التجارة الحقة في حياتنا وتحقيق المكاسب المادية والضرورية لتسيير عجلة الحياة بشكل اعتيادي. قلت لنفسي «يالها من مناقيش تلك التي ذهبت لتشتريها» ووضعت احتمالات أخرى لنوعية طازجة ومميزة منها وأبعدت المسافة ما بين منزل الصديقة والمطعم الذي يصنعها. بل تخيلت أن الصديقة ذهبت بعيداً بعيدً في جلبها وربما إلى حيفا لولا أنني أدركت استحالة هذا الاحتمال لأن الصديقة لا تستطيع الذهاب إلى حيفا أو يافا أو عكا لمجرد شراء طبق من المناقيش لعدة أفراد. وفي الشهر التالي دون أن يرن هاتفي ودون أن يتصل بي أحد طوال تلك الفترة أدرت قرص الهاتف قبل أن يفصل وقد

فرغ الجيب تماماً من إمكانية سداد فواتيره، لأسمع ذات الإجابة:

« ذهبت لشراء مناقيش يا ابني ولم تعد»

و فجأة أدركت أن المناقيش التي ذهبت صديقتي لشرائها ليست كأية مناقيش عادية. ليست متوفرة لا في سوريا ولا في الأردن ولا في أميركا ولا في أوروبا ولا في كل الأماكن التي نعرف. إنها المناقيش التي هي تعرف والتي هي تريد والتي هي تحلم، فكل ما أعلم حتى الآن رغم مرور سنوات على تلك المكالمات وبعد أن انقطعت عني كل أخبارها وبعد أن لم يعد لديهم هاتف يرن أو لدي هاتف يرسل أنها مناقيش بعيدة مناقيش بعيدة فقط مناقيش فقط بعيدة.

مقطع من رواية تيسير نظمي الثانية

1- الحافلة

هكذا فجأة انخرطت في بكاء مرير صعب على ركاب الباص صبيحة ذلك اليوم تفسيره. فقد مضى على ركوبها للحافلة سنتان، تدخل متجهمة بعض الشيء ونادراً ما تبتسم، تجلس في المقعد المحاذي للنافذة بانتظار صديقتها أو زميلتها في العمل أن تحتل المقعد المحاذي على يمينها. لم يخطر على بال أي من المدرسين أن مثل تلك المعلمة سوف ينهار جبل صمودها القاسي مرة واحدة. فقد أصبحت مع الأيام وانضباط المواعيد وتوقيت حركة الباص، كونه وسيلة النقل الوحيدة لقرية نائية، جزءاً من الروتين اليومي المعتاد للجميع.كان أن حصلت على تعيينها معلمة بعد أن أودعت زوجها السجن لتظهر بثياب الناسكين حتى في لباسها الميال دائماً للألوان القاتمة وفي أحاديثها ولفتاتها ونظاراتها السميكة التي توحي فورا بمعاناتها من الاستجمتزم، أصبحت مألوفة لدرجة مقيتة بحيث لا تدعو

أيا من الركاب في أي من الأيام أن يتساءلوا من باب الفضول عن مزيد من المعلومات عنها غير كونها: مطلقة، ولها أطفال، ولم تتزوج منذ طلاقها بعد معاناتها من التردد على مراكز الأمن نتيجة خلافات مع طليقها أو مع زوجها قبل أن يصبح طليقها، كل هذه التفاصيل باتت معروفة منذ سنتين فما الذي يدعوها اليوم لمثل هذا الانفجار البكائي المرير، كلما أسكتوها ازدادت بكاء وكلما تساءلوا عن السبب انهارت أكثر بالعويل، هكذا فجأة تفجرت ينابيع غير محسوبة من داخلها. براكين من الألم الذي كانت تدفنه وتحرص على عدم نضوجه من خلف تقاطيع هادئة أحيانا ومتجهمة دائماً ولكن ليس لدرجة العبوس المنفر. وحده الرجل الصامت كان يعرف أكثر مما يعرفه الجميع. لذلك لم يتحرك من مقعده ولا تساءل ولا واساها ولا تدخل في شيء .عندما نزلت من الباص في منتصف الطريق لتقفل عائدة إلى أطفالها الذين ادعت أن أحدهم مريضاً وأنها تبكي عليه، وحده الرجل الصامت كانت عيناه قد بدأتا تغيمان وتتحدر الدموع على وجنتيه بصمت لأنه وحده الذي يعلم من المنضبطين في الحزب بحكاية تعاونها وتلفيق التهم لزوجها السابق الرفيق والمناضل الذي قدم شبابه لها وللحزب ولقضيته. وحده الذي أدرك مأساة أن يصدقها كل الناس إلا نفسها. فقد اقنعت مع الأيام كل من لا يعرف طليقها أنه رجل سيء وسكير ومبذر واتكالي ويطمع في نقودها ويتوكأ على وظيفتها. في حين كان يعلم الرجل الصامت عكس ذلك، بل عكس ذلك تماماً.فالرفيق تزوج منها تلميذة وعاملها بما افتقدته خلال ثماني عشر عاماً من حنان وأبوة فكان لها أبا وأخا وأستاذا ومربياً ولم تكن تحبه،

فقط هربت من المعتقل الذي كان يسمى منزل والدها إلى الحرية والبحر. إلى الجماعة والحزب والى القضية التي كانت تؤرق الرفيق.وكان يعلم الزوج بتحولاتها كما لو زهد في الحياة كلها ويعلم أن لا عرس حقيقياً له في دنياه، فقط عليه أن يكون ملتزماً بالواجب، أن يكون نزيهاً في علاقاته وأن لا يجرح شعورها بمجرد التفكير بالخيانة. فماذا يقول الرجل الصامت للآخرين معه في الحافلة؟ هل يقول لهم أنها قتلته، وأمعنت في قتله؟ لعلها إذن تذكرت أنها غير مقتنعة بما اقنع الناس، اليوم فقط قد يكون ضميرها تحرك قليلاً، قال الرجل الصامت لنفسه: إنه انهيار جميل.. إنساني جميل.. بدلاً من هذه الجبال الجرداء والقرية الهادئة الصماء، مكافأة من تعاونت معهم عليه، لها، ما أحقر المكافآت من القتلة للقتلة، ولم ينتبه أحد من الركاب، والباص يمضي روتينه اليومي، إلى دموع الرجل الصامت، فقد كان، كما اعتاد، جالساً في المقعد الخلفي مثلما هو في الحزب. نسي بقية الركاب المفاجأة، والبكاء والمرأة، وعاد الجميع لأحاديثهم اليومية المعتادة، في الطريق إلى المدرسة. مدرسة واحدة فقط، ولا تقول شيئاً واحداً عن الحياة. ورجل صامت فقط تصطرع بداخله الحياة ولا يصارع غير الموت. منذ عشرين سنة وهو يخوض نفس النضالات في الحزب ومنذ عشرين سنة وهو يقطع الطريق الممل إلى بعكورة حيث تم تعيينه أول مرة دون أن يشي بأحد ودون أن يكون سببا في حبس أحد، ودون أن يتمتع بإجازة الأحد أو يسمع أجراس الكنيسة ذات أحد.

2- المطرقة والمنجل

دخل إلي في الزنزانة حاملا مطرقة، قال: خذ واحفر في هذا الجدار عالمك، فتناولتها تلبية للأمر وأنا ما زلت أفكر بان البلد أكبر مصدر للاسمنت ولكن هذا الجدار الأسمنتي الصلد المسلح بالخرسانة والحديد الصلب من أين له بكل هذا لو لم أكن شريكاً في صنعه دون أن أقصد، فالبلد الذي أتناول مطرقته لأحفر في جدران زنزانته عالمي جاء بالاسمنت وأنا جئت بالحديد المسلح من غزة. أعدت إليه في اليوم التالي مطرقته بعد أن صقلت بها في الليل روحي. فلولا إرادتي الفولاذية ما جاء بي أحد إلى هذه الزنزانة. قال ساخراً وهو يأخذها من يدي: هل حفرت بها عالمك؟ قلت له بهدوء: عالمي بداخلي.. طرقت فقط بها ندب الروح وصقلت بها كل حديد الإرادة الساخن ولولا أنني من مطرقة ومنجل لما جيء بي إلى هنا، فقال: هل تسخر وتتفلسف! قلت: حاشا، لكن مطرقتك لا تصلح سوى لطرق العملات المعدنية، ولم أعد بكثير حاجة هنا للعملات المعدنية. فمضى بالمطرقة والنياشين ومضيت أنا في الأغنية أدندن:

حن الحديد على حالو وانت ما حنيت، لو كنت تدري بحالي...

في اليوم الثالث لإضرابي عن الطعام جاء نفسه ليخبرني أن المشتكية في قضيتي مرت اليوم بإدارة السجن وفي حقيبتها تقرير طبي يفيد بأنني مختل عقلياً ومريض نفسياً وتطلب مفاتيح السيارة اللادا الحمراء لتسليمها لدائرة الإجراء تمهيدا لبيعها بالمزاد العلني لتحصيل نفقتها الشهرية، ثم ضحك

هازئا وقال: هل آتي لك بمطرقة العملات المعدنية؟ قلت: لا حاجة لي بها فمن تريد الطلاق والحرية لا حاجة لها بالإنفاق من العملات الأجنبية، فناولني ورقة مهرتها بتوقيعي ليصار إلى إقراري لها بالنفقة الشهرية. فمضى بها وبنياشينه ومضيت أنا في الأغنية أدندن:

يوم على يوم لو طالت الفرقة

ما نسيت أنا يوم ما نسيت أنا الرفقة...

وفي اليوم الرابع من مواصلتي للإضراب جاءني بلائحة الاتهام وقال ساخرا: شروع بالقتل مع سبق الإصرار والترصد مكرر ثلاث مرات... يعني مؤبد يا فيلسوف عصرك، فما أن قرأت لائحة الاتهام حتى خجلت قضبان السجن الحديدية ولانت لي ولم أشأ استغلال ليونتها والدموع التي ترقرقت من عيني الجدار وهو يراني...

طويت لائحة الاتهام وأنا أتذكر أول مرة أشاهد بها المنجل في يدي أمي في سهوب القرية في الخمسينيات،أيام النتش. وأول مرة أشاهد بها المطرقة في يد والدي في الستينيات في وزارة الأشغال العامة الكويتية بقسم الحدادة والصلب،أيام الهبش. فأدركت جمال أن تكون الابن الوفي للمطرقة والمنجل.

وفي اليوم الخامس جاءني مكفهراً ففتح قفل باب الزنزانة من دون أن يتكلم بشيء ولما لاحظ عيني المستفسرتين قال باقتضاب

: إلى المحكمة،

ولا ادري مع انهيار شمس النهار في عيني دفعة واحدة لماذا تنفست هواء الأغنية هذه المرة دون دندنة:

بكتب اسمك يا بلادي عالشمس الما بتغيب...

لا مالي ولا ولادي على حبك ما في حبيب.

كنت اشتهي آنذاك قلما واحدا فقط والسماء الزرقاء الصافية

عزرا

إلى محمود في حيفا

أحسست به يدخل البيت قبل أن أغفو بلحظة، وكنت أعلم أنه يعلم لذلك تركته يستريح قليلا في غرفة المكتب فهو يعرف أنني لا أستقبل منذ سنوات غيره وليس لدي غرفة لاستقبال أحد كان. ذهبت إلى الحمام كي ألقي على نفسي نظرة فلا يجوز إن كان قد جاء لتأدية عمله المضني السريع الكريه المحتوم أن أستقبله هكذا وأنا ذاهب للنوم، فلم يأت بأية حركة تدل على أنه في استعجال من أمره لمقابلتي ومن ثم المغادرة على الفور. فكرت في الحمام بأسباب مجيئه خاصة في مثل هذه الأيام التي لا يفرغ فيها لثانية واحدة في الأربع والعشرين ساعة المضنية منذ الأزل. قلت لنفسي مبتسما كم في تأخره لدي واستراحته النادرة من بركة ورحمة من العلي القدير. وحالما دخلت عليه بالسلام الذي يخصني وجدته يجرب أقلامي واحدا إثر آخر متأففا من عدم صلاحية أي منها. رد تحيتي بمثلها قائلا: شلوم. مقتضبة وحاسمة كعادته فهو لا يقبل المزاح ومتجهم دائما منذ وفاة سيدنا آدم، لا بل منذ مقتل هابيل وعدم إيقاع أية عقوبة بأخيه قابيل، وهو هكذا على رأس

عمله ولم يحظ منذ ذلك الحين بإجازة عمل وإن حظي بالتفرغ الإبداعي، إذا صحت الأقاويل في مصر أو العراق عندما خط بيديه أول الكتب أو المخطوطات التي نسبت إليه. سألته من باب اللياقة والكرم العربي القديم وبشاشة الضيافة إن كان بحاجة لأن يشرب شيئا فابتسم ابتسامة العارف المدرك أن لا شيء أصلا لدي يشرب فحتى المياه مقطوعة عني ثلاثة أيام في الأسبوع بفضل عناية صاحب البيت المؤجر الذي يسكن فوق وربما ما جاء من أجله الضيف العزيز بعد أن ناهز ـ أمد الله في عمره ـ على الثمانين من عمره.

قلت له ـ ونحن البشر كثيرا ما نحب الكلام ونؤثره على الأفعال ـ: أنت تعلم إذن أن لا شيء لدي لضيافتك فهل تسمح لي بالوصول للسوبر ماركت القريب لشراء علبة أو زجاجة؟ فلم يرد لكنه حدجني بنظرة فاحصة رغم الإعياء البادي على محياه.

كررت سؤالي هذه المرة بالإيماء احتراما لطبيعة عمله التي تقتضي السرية التامة والتي هي أصعب من العسكرية التي ترهقه كثيرا وربما تثير حتى الاشمئزاز.

فقال: تستدين كي تلحق بي لعنة إلى أبد الآبدين يا حفيد إبليس؟

قلت: إبليز إبليز ...حاشا أن يكون هذا ما قصدته لكنني مشفق عليك فأنا أعرف أخبارك من القنوات الفضائية وربما قصدت أن تستريح قليلا خاصة وأنني قرأت مرارا ما قد نسب إليك وما ينسب حتى اليوم وأنت

تعرف أن مصادر المعلومات لدينا محدودة بعد ارتفاع أسعار النفط.

فقال: أعرف أنك كنت أيضا ستجلبها باردة!

قلت: أجل وهل لي أن أثقل عليك بتحمل حرارة غرفة المكتب في هذا الصيف الحارق.

ظل صامتا وقد تغيرت ملامحه فهو الوحيد الذي لا يستطيع بفعل تكوينه أن يصرح أو يشكو من أقداره بعد أن ضجر من مهنته أيما ضجر لدرجة بات فيها يحسد الموتى على موتهم. ظل صامتا صمتا ثقيلا ما أثقله من صمت ذاك صمت المغلوب على أمرهم إن هم تكلموا أو أعربوا عن وجهة نظرهم فقدوا أعمالهم أو طردوا شر طردة مما يظنونه ملكوت النعيم ولاحقتهم اللعنات إلى يوم الدين. ورغم ذلك سألني برفق:

ماذا تريد مني قبل أن أغادرك؟ فقلت فورا:

أن تكون زيارتك المقبلة والأخيرة في الصيف في مثل هذا التاريخ إن شئت أو بالأحرى إن شاء الله.

فقال: لماذا؟

قلت: لأن معظم أقاربي يأتون الأردن في الصيف من السعودية والكويت وأميركا ولا أريد إحراج أحد كان في الأردن بمسؤوليات التجهيز واستخراج المعاملات الرسمية وإبراز بطاقة الأحوال المحتجزة أو جواز السفر وتسديد أجور النقل والحفر والضريبة وإكرامية المقرئين وما

شابه وأنت سيد العارفين.

قال: وجارك؟ جارك الحانوتي؟

قلت: تعرف أنني لا أكلم أحدا في هذا الحي كوني أعيش عازبا في هذا الحي العائلي بامتياز. وربما إذا قررت أن تجيء دون أي تمهيد لذلك قد أتسبب بفعل الرائحة بمضايقة الجيران بعد أسبوع من مجيئك.

قال: تعرف أن القرار ليس بيدي ولست أنا من يعرف به إلا قبل ثوان معدودات من التنفيذ.

قلت مختتما: ها أنا أجبتك عما أريد فإن استطعت إلى ذلك سبيلا فهذا هو ما أريده فعلا دون أدنى تأخير.

نظر لي نظرة فاحصة، وبعد تردد قال: يا لك من فلسطيني أصيل، هل قلت لي أن ديانتك الإسلام؟

بقيت صامتا تاركا له تقدير ذلك أو حسب الاختصاص.

قال متشككا: اليهودية؟

بقيت أيضا صامتا.

قال مبتسما: المسيحية؟

ونظر إلى ما حوله في غرفة المكتب وإلى بعض زجاجات فارغة.

ثم قال وهو يهم بالنهوض: البوذية الهندوسية أم أنك كما يشاع عنك من

بقايا الإتحاد السوفييتي؟

قلت مكررا: أترك الأمر لحسن تقديرك...لأنك لم تجبني أنت أيضا إذا ما كان إسرائيل شاحاك محقا أم لا.

نظر إلي نظرة متأملة فاحصة مدققة وظل صامتا ولكنه كم كان حزينا يا الله كم كان حزينا وبائسا مثلي وقد قال كل ما لديه، واختفى. دون أن يقول عذرا قال ما لديه وأخ ت ف و

الأردن- عمان-

2007/7/17

من رواية وقائع ليلة السحر (الفصل الأخير)

1- العجل والقر والحمار

كان وحيداً عندما دخلنا إليه. عمره لم يتجاوز الأسبوعين وواقف رغم هزالة جسده. قدم له عمي الذي تجاوز الستين من عمره إناء الحليب الاصطناعي المعد حسب المكاييل والأوزان ووصفة الشركة الفرنسية المنتجة، فمد رأسه ليرشف ثم ابتعد غير راغب في مذاقه رغم الجوع. عللت من جانبي هذا التصرف بأنه أمر طبيعي أن لا يستساغ الحليب الاصطناعي من عجل صغير حديث الولادة عندما يقارن بحليب الأم.لكن هذا الأمر من وجهة نظر عمي يغدو مكلفاً إن هو أصر على رفض تناول الحليب الاصطناعي وأعتمد كلية على حليب أمه. وبحسبة بسيطة كان قد شرح لي عمي وهو يعد حليب البودرة، أن تكلفة ما يشربه العجل الوليد من حليب مرضعته يبلغ نحو الخمسة دنانير يومياً وأنه لو شرب نصف هذه الكمية من حليب البودرة الاصطناعي بنصف دينار سوف يوفر في الوجبة

الواحدة نحو دينارين وضعف هذا الرقم إن تخلى كلية عن حليب الأم. العجل الصغير بدا للوهلة الأولى متمرداً وليس في وارد حسابات عمي على الإطلاق. وهكذا ظل في الجولة الأولى رافضاً تناول الحليب الفاتر المعد له خصيصاً، بل أنه عندما تم إكراهه بالضغط على رأسه ليغرق فمه بإناء الحليب إندفع بقدمه المتسخة ليضعها في الإناء مما جعل وجبته تمتلئ بالتراب وروث الأرض. وهكذا توقف العم عن الود والإكراه معاً تاركاً له الإناء بحالته تلك حتى يجوع تماماً ويضطر في عزلته للتعود على الحليب الموجود أمامه. تأملت جسده وقد شف عن عظم ناتئ عند ظهره القريب من ذيله ومؤخرته وعن خواء معدته التي بدت فارغة لا يغطيها سوى الجلد المرقط باللونين الأسود والأبيض. ثم غادرناه لتفحص بقية أركان المزرعة وموجوداتها بعد أن وصلنا متأخرين نحو ساعتين عن الموعد اليومي المقرر الذي يصل به عمي لتفقد ورعاية مقتنيات مزرعته من حيوانات وطيور. نهيق الحمار الذي انطلق عند مشاهدته لنا بدا حزيناً أكثر مما يجب، فقد سمعت الكثير من نهيق الحمير في حياتي المبكرة عندما كان عمري لا يتجاوز الخامسة عشرة، أي عام 1967، لكن مثل هذا النهيق لم أسمع، فقد كان عذاباً وقهراً ويأساً ذلك النهيق. وتبين لي بعد ذلك أن الحمار كان مربوطاً ليس أكثر من بضعة أمتار تفصله عن بانيو الحمام الممتلئ بماء متسخ إلى حيث اقترب الحمار وابنه القر الصغير ليشربا سوياً بعد قضاء ظهيرة يوم حار ضمن موجة الحر التي اجتاحت الأردن أواخر أيلول عام 2004. وحينما وصل الحمار لبانيو الماء مد رأسه فورا وراح يغب غباً متصلاً للماء دون أن يرفع رأسه أو يحدث أي صوت يدل على أنه يشرب، فقد كان عطشاً بشكل لا يصدق وعلى مدى

دقائق متصلة ظل يشرب ويشرب ويشرب كأنه في غيبوبة وكأنه آخر الماء في الكون ذلك الذي يشربه منذ بدء الخليقة حتى اضمحلال كوكب المريخ وجفاف الماء الذي كان عليه قبل ملايين السنين. رحت أتأمل الوضع بينما القر الطليق غير عابئ بالمشهد لأنه لم يكن مربوطاً وقد كان حراً قبل أن يفك إسار والده المسكين أو والدته ومع ذلك لم يفعل شيئا لأبيه أو أمه في محنته تلك فلا نهق ولا شاركها في العويل، على عكس العجل الحصيف الذي تصرف وكأنه يحس بمؤامرة عزله عن أمه وبعده عنها وهي تملأ له درتها بالحليب ولكنها أيضاً كانت مربوطة ومغلق عليها حتى بوجود جدة العجل الهولندية الضخمة التي أنجبت أماً للعجل قبل أن يولد بزمن طويل.

2- بسالة كلب

للمرة الثالثة، رغم تجوالي في المزرعة بصحبة العم صاحبها اليومي، ينبح الكلب أو الكلبة ببسالة منقطعة النظير كاد مع قوة اندفاعه/ اندفاعها أن يبتر الجنزير المربوط به مع ان الجنزير يليق لقوته ومتانته بربط ذئب وليس ربط كلبة هزيلة قليلة الحجم ناحلة الجسد وأشاهدها لأول مرة مثل بقية الحيوانات التي أشاهدها للمرة الأولى في المزرعة بعد انقطاعي عن التردد عليها وعلى العم وأبناء العم زهاء سبع سنوات متصلة كنت عاكفاً فيها على تربية العزلة، عزلتي، وريش المأساة، مأساتي، وتنمية الديون، ديوني، في قلب حي فاخر في عمان الغربية قريبا من مكان عملي الذي أزهقت فيه وحوصرت حتى حققت للوزارة أمنياتها الطيبة بتقديم استقالتي التي قبلت

فوراً حتى قبل أن ينهي طلابي أسبوعهم المدرسي الأخير من العام الدراسي وقبل أن أتمكن من وضع الامتحان النهائي لهم. وهكذا مضت ستة شهور على عدم سماعي لأي نوع من أنواع النباح أو النهيق أو رعاية العجول الصغيرة والكبيرة.

و رغم نسياني للطريقة التي عالج بها مدير المدرسة الموقف بل ونسياني لمدير المدرسة نفسه خلال الشهور الماضية من العطالة عن العمل، إلا أنني لا أدري كيف تذكرته أمام بسالة نباح ذلك الكلب الصغير، تذكرت تماماً كيف حمل ورقة الاستقالة، أو قصاصة الورق التي كتبتها على عجل وبالقلم الأحمر المتوفر لدي آنذاك ببضع كلمات عجولة: أنا فلان الفلاني أتقدم باستقالتي وسأوافيكم بالأسباب الداعية لذلك فيما بعد، وبعد توقيعي عليها ركض المدير يحملها مغادرا المدرسة إلى مديرية عمان الأولى زافاً البشرى لمدير التعليم وكأنه أنجز المهمة الموكلة اليه بتحرير القدس عندما أدار مفتاح سيارته وانطلق لا يلوي على شيء سوى أنه وصل إلى تحقيق الهدف المرجو من عمله التربوي ذلك المدير الذي شارف على تقاضيه لراتبه التقاعدي. لكن نباح الكلب هذه المرة لم يصل إلى نتيجة مع عمي الذي تجاهله على أمل أن يدرك أن النباح لمرة واحدة يكفي لإشعار القاصي والداني أن ثمة غريب في المزرعة وتكرار النباح على ذلك النحو يغدو أمراً مبتذلاً من الكلب الذي ليس بحاجة لإثبات كلبنته ووفاءه أكثر مما يجب ليحصل على قطعة لحم لدجاجة ميتة من الدجاج الذي يربى بقصد الحصول منه على البيض في بركسات الدجاج البياض المجاورة .

3- الحالب والمحلوب
والجالب والمجلوب

انتقلنا إلى غرفة واسعة بباب حديدي واسع لأشاهد لأول مرة ثلاثة أبقار عملاقة بأحجام ضخمة متقاربة جداً اثنتان تتشابهان باللون المرقط بالأسود والأبيض وواحدة لم يتخلل لونها الأسود أية بقعة بيضاء تميزها عن الليل في الخارج، الليل المرتفع على جبل مرتفع ببضع نجوم قليلة في السماء وبقمر مائل ناحية الهدوء المخيم على المزرعة في منطقة مقفرة لا تسمع بها سوى نباح الكلب عند أسفل المزرعة من ناحية الباب الحديدي الذي لا بد من فتحه لدخول الوانيت ـ البيك أب ـ القادم من جنوب عمان باتجاه مدينة مأدبا والذي قبل بلوغه منتصف المسافة من عمان إلى مأدبا يتسلق طريقاً متعرجاً صاعداً بك نحو قرية عجرمية يتجاوزها نحو سفح الجبل حيث تقع مزرعة العم القادم سنة 1991 من الكويت بعد انتهاء حرب عاصفة الصحراء بأشهر قليلة أو أسابيع. ضغط العم على الزر الكهربائي لآلة صغيرة بهاتور يتفرع عنها بربيش شفاف ينتهي طرفه بنحو خمسة شفاطات تثبت بدرة ـ أثداء ـ كل بقرة يراد حلبها بطريقة ميكانيكية تعتمد شفط ما تجمع من حليب طيلة النهار في ضرع البقرة التي تكون مربوطة الرقبة بحيث لا يكون بإمكانها الاحتجاج أو التمرد أو حتى أن تحك رأسها بالمقبض الحديدي الذي يحرك تلك الآلة على عجلات تتقدم على مسافة متر من الضرع المتدلي بما يثقله من حليب بقر هولندي عملاق يشبه كثيراً بعض العائدين من الكويت عام 1991 بما تجمع في ضروعهم من أموال طيلة

ثلاثين أو أربعين عاما قضوها في مراعي النفط المدرارة للبعض والشحيحة الجافة للغالبية ليصار إلى حلب الجميع دون هوادة أو تفرقة خلال السنين الأولى من عودتهم إلى الأردن بأنابيب لها صفتها القانونية والمؤسساتية من ضرائب وجمارك وتقاضي ونزاعات ومحاكم وضرائب دخل ومبيعات ومسقفات وبلدية وتلفزيون وكل ما تبتكره الدولة من أساليب لجمع وشفط الأحاليب مثل ضريبة المعارف وضريبة الريف وضريبة النفايات متعددة الغايات وكل ذلك دون أن يوجد العلف لآلاف الأبقار التي كانت سارحة في الصحراء ودول الخليج ودون أن توجد الوظائف والكل يعيش من الكل والكل خائف. فالعم مثلاً الذي يقوم الآن إبنه بالحلب الصناعي للبقرة الوالدة حديثاً البعيدة عن مولودها المحجوز في الغرفة الثانية بعيداً عن أمه وجدته وخالته السوداء خسر في أول سني عودته للأردن أكثر من خمسة وأربعين ألف دينار في مشروع لصنع الحلويات في مرج الحمام أظنه عند التأسيس أسماه الأصابع الذهبية ليبيعه مضطراً لمن لم يستطع تسديد ثمنه كاملاً بعد الدفعة الأولى من المواطنين الذين رعتهم الدولة دون أن يضطروا لمغادرة الأردن لا سمح الله لجلب الغنم والمغانم من الخارج والحلب في خزينة الدولة التي لا تمتلئ بفعل بركات البنك الدولي والبنك الغير دولي.

تابعت عملية الحلب البائسة للبقرة الأم التي أنجبت العجلة، العجلة التي سرعان ما تحولت إلى بقرة بحجم أمها ومن ثم تحولت البقرة الأساسية إلى جدة بفعل النمو المتسارع والعلف المستورد وبعض حشائش الجبل

الصخري التي يتغذى عليها الآباء والأبناء سواء من الحيوانات غير الناطقة أو الحيوانات الناطقة وحاولت تناسي ما هو مخزون في ذاكرتي الثقافية القادمة من الكويت من تداعيات العقل الواعي والعقل غير الواعي لما يستدعيه وجود البقر الهولندي، الحليب، في الذهن من قراءات أو ذكريات، كالبقرة في أدب جيمس جويس أو في أمريكا اللاتينية وتحديدا في المكسيك والثورة الخضراء وما انتهت إليه بعد أيام كارديناس ومزارع البقر التي أنشأها رعاة البقر في مستعمرات البقر وما انتهى إليه المواطن الأصلي في تلك البلدان من فقر وهزال حيث أصبحت البقرة الواحدة تعيش على ما كان يقتات عليه 12 فردا من السكان الأصليين من الفاصولياء قوت وبروتين الفقراء وخبزهم في دول أمريكا اللاتينية ولا ألحت الذاكرة أيضا على بعض قصائد بابلو نيرودا التي يرى فيها الورد الأحمر الذي سينبت من راحتي تلك النحيلة التي تلم لطع البقر بيديها لتعيش ولكنني كنت قد استدعيت تذكر مقالة لي كتبتها قبل خمس سنوات بعنوان « لسنا أبقارا لكم» وحققت التفافاً جماهيريا حولها لكل من قرأها وأحس بأنها تعبر عن وجعه، خاصة من سكان أربد. يومذاك قلت أن البقر الهولندي وصل بحضارة أوروبا كي تحصل منه على أفضل الحليب وأفضل كميات بأسرع الأوقات أن يعزفوا له موسيقى لزيادة إنتاجيته، أما الأبقار العائدة من الخليج فلا تجد من يحس معها أن ضرعها جف منذ السنوات الأولى لعودتها ومع ذلك ما يزال يجري الضغط والحلب الآلي والطبيعي لضروعها الجافة الأمر الذي يؤلمها دون طائل ودون أن تحصل مؤسسات الحكومة والدولة على الحليب

الذي حصلت عليه في السنوات الأولى من عودة الأثداء مثقلة بالدولار والدينار. يومذاك تساءلت: هل نسي الرعيان في بلادنا العربية حتى كيف كانوا على الأقل، يجيدون الحلب، في الماضي القريب، بدلا من أن يطوروه كما طور الهولنديون طريقة الحلب بالموسيقى؟ وهل لنزلاء السجون ومعسكرات البطالة من العائدين من الكويت غير نقود التعويضات لمعالجة ضروعهم المشققة من كثرة الضغط بقصد الحلب بلا طائل؟ وأسئلة أخرى وغيرها تتوارد للذهن سرعان ما أطردها عن خاطري متذكرا العجل الوليد في الحجرة المجاورة الذي أعلن تمرده منذ الأسبوع الأول لميلاده بأن يضرب عن الطعام طالما هو بعيد عن أمه وجدته وخالته وطالما هو غير منتفع من حليب الأم بالقدر الذي يجعل منه مواطنا صاحاً لخدمة شعار الأردن أولاً.

فجأة تساءلت بعد أن شعرت أن الغلبة للإناث في المزرعة، من يكون إذن الأب الفعلي للعجل المتمرد اليوم والذي سوف يخنع في الغد؟

قلت لعمي: أين الثور إذن في عملية التوالد تلك التي تمت خلال السنوات السابقة من شح زياراتي لكم؟

فابتسم قائلا: أن لا ثور في هذه المزرعة غير الطبيب الذي يأتي بإبرة التلقيح الاصطناعي للبقرة المراد أن تحمل لتلد لنا عجلاً أو عجلة. وبالتالي فإن الآباء مجهولي الهوية هنا رغم معرفتنا للأمهات والثكالى. فنحن قال العم: نجلب الدكتور فيغزها إبرة وغير مضطرين لجلب الثور. فالثور لا يحلب الثور، وهنا تساءلت: «لماذا لا تفهم الحكومات الأردنية المتعاقبة هذه الحقيقة العلمية

البسيطة، في حالتي وحالة كثير من الناس من ذات الفصيلة؟»

وبالتالي تصر محافظتي الزرقاء والعاصمة على إصدار مذكرات الجلب دون طائل سوى إضاعة وقت الجالب والمجلوب في عملية عبثية بين الحالب والمحلوب!

4- الصعود إلى أعلى

بعد الانتهاء من سقاية الحمارة التي كنت أظنها حماراً وقرها أو قرتها الصغيرة وبعد الانتهاء من حلب ثلاث بقرات ضخام حصلت كل واحدة منها على مكافأة الخروج إلى الحظيرة المكشوفة في الهواء الطلق وشرب الماء وجها لوجه مع الحمارة التي كانت لا تزال مستغرقة بالشرب وإطفاء الظمأ وبعد أن أدت الكلبة مهمتها وزيادة بالنباح الباسل على شخصي، وهذه أيضاً كنت أظنها كلباً ذكراً فإذا بها كما كان يخاطبها عمي كلبة صغيرة وحقيرة جداً، بعد كل ذلك صعدت أنا وعمي، المرتفع، تاركين الأبقار في بيتها والحمارة وابنها أو ابنتها في بيتهما والعجل المتمرد أصغر الكائنات في المزرعة أيضاً في بيته وعزلته الانفرادية صاعدين نحن أيضاً إلى بيتنا، إلى الفيلا ذات الشرفة الواسعة المطلة على إضاءات وأنوار القدس البعيدة التي كانت تتلألأ في مرمى البصر مثلما كانت تتلألأ أنوار حيفا ويافا وربما عكا أيضاً أمام ناظرينا من باحة منزلنا الواسعة في سيلة الظهر خلال ليالي الصيف ما قبل حزيران 1967 الذي غادرنا من بعده إلى الكويت. أحسست

مع الصعود بلهاث العم رغم أنه منقطع عن التدخين منذ سنوات وبالطبع بلهاث مدخن مثلي يحرق ثلاث علب سجائر رديئة في اليوم. كان كلانا يصعد مستغرقاً بالصمت وكلانا له عالمه وطريقة تفكيره، بحكم فارق السن، حيث أن أعمامي الاثنين يكبرانني بعشر سنوات بيني وبين العم الأكبر في حين أن العم الأصغر يكبرني بسنوات ست فقط وقد بقي في البلاد بعد هزيمة عام 1967م ولا يغادر السيلة إلا لماماً أو للزيارة وهو يقطن منذاك في المنزل الذي شيدته بأموال أرسل لي بها الوالد ـ طيب الله ثراه في ثرى الكويت ـ من عمله وشقائه في ذلك البلد منذ أن وصله بتاريخ 1953/3/31 حتى وفاته بمرض السرطان في أيار 1989 قبل عيد ميلاده المفترض بنحو أسبوع فقط. وقد أنجب العم الأصغر صبياناً وبناتاً يصعب تعدادهم فملأوا بيتنا هناك حيوية وحياة وضجيجاً جعل الناس ينسون أن ثمة غياب أو غائبين عما صنعته أيديهم أولئك الغائبين! ولا زلت أذكر أن الوالد ـ رحمه الله ـ لم ير بأم عينيه ذلك المنزل على الإطلاق إلا من الصور التي أرسلت بها إليه وكان عمري آنذاك لا يتجاوز الخامسة عشرة. وقبل أن نصل لفيلا العم مررنا بكلب أسود تريث ولم يقم بالنباح عليّ فلما حاولت أن أشكره على حسن ظنه بي نبح هو الآخر عليّ كأنما أراد أن ينفي أية علاقة بيني وبينه باعتباري محسوب قلباً وقالباً على اليسار فكرياً وسياسياً وباعتبار عمي محسوب على أصحاب رأس المال المتوسط وشكرته أيضاً الكلب على ذلك النباح الذي يحفظ له موقعه ومنزله بعكسي أنا الذي لم يحتفظ لنفسه يوماً لا بموقع في العائلة ولا بموقع في الحزب ولا بموقع وظيفي ولا بموقع

أسري بعد أن تطلقت أم الأولاد وانكفأت بأولادها ونفقتهم في زاروبة من زواريب الزرقاء الحارة في الصيف كأنها امتداد للحرارة اللاهبة في الكويت وأقطار الخليج والبصرة وبغداد. ومع أنني من الناحية العملية عملت في الكويت ربما أكثر من ثلاثة أعمال في اليوم، في التدريس صباحاً والصحافة مساء والسياسة والحياة الزوجية في الليل مثل ثور لا يكف عن الحرث في أي مكان تطأه أقدامه، إلا أنني لاحظت أن ثمة وجه للشبه في أمور كثيرة وأن ثمة وجه للاختلاف أيضاً في ما يجمع إناث الحيوانات في المزرعة وما يفرقها عن الذكور. كنت أحس بالتعاطف التام مع كل من يمنحنا الحليب واللحم في وقت يحرم نفسه منها ويحرم أبناءه. أما أن تحرم البقرات الثلاث الضخام من الثور الذكر مدى الحياة فهذا ما لم أستوعبه بعد مثلما لم أستوعب حرمان العجل الوليد من ثدي أمه. فالمسألة ليست غذاء وحسب وليست إبرة تخصيب وحسب، إذ لابد من وجود الثور بشكل من الأشكال. كي توجد العلاقة الطبيعية بين الكائنات. تماماً مثل تلك العلاقة الطبيعية بين القر وأمه الحمارة رغم عدم وجود والده الحمار. لكن ما دام حماراً فهل كنت تتوقع أن يقوم بمسؤولياته أمام ظمأ زوجته وفلذة كبده؟ وقبل أن نصل لشرفة الفيلا الجبلية في أعلى المزرعة مررنا ببيت الذكورة حيث حشرت ديوك الحبش وديوك الدجاج في قفص واحد محاط بالشباك منعاً لمهاجمة الواويات وبنات آوى لهن إن استطاع أحدهم النفاذ من الشبك المحيط بعدة دونمات تشكل المزرعة بشجرها وكائناتها تلك التي اشتراها العم صخورا وفلحها بقوة رأس المال واستصلحها بساتين وأشجار عنب وتين وأغراس زيتون ليوجد

بقوة وبأس الشقاء على أرض الواقع شبيهاً للأرض التي فلحها واعتنى بها جدي تساعده أموال أبي ثم افتقدناها جميعاً اليوم باستثناء عمي الأصغر وعمي الأزعر أيضاً الذي لا يولي بحكم النشأة والسن الفلاحة والزراعة اهتماماً كافياً ناهيك عن عراقيل الإحتلال الإسرائيلي للبلاد.

فالحقيقة اليوم أن الحيوانات رغم اختلاف أنواعها قد يوحدها وطن في حين أننا نحن البشر يفرقنا الوطن في بقاع وأصقاع الأرض فها نحن القسم المتواجد في عمان لا نزور بعضنا البعض إلا في المناسبات فما بالك بالقسم الموجود في الولايات المتحدة أو غير المتحدة! لي أقارب مثلاً في المفرق وإربد والزرقاء لم أرهم منذ 12 سنة، أي منذ هبطت بي الطائرة القادمة من الكويت في 14 تموز 1992 أما الأقارب في السيلة فلم أرهم منذ حزيران 1967 وأقارب في أستراليا وفرنسا وبريطانيا وأميركا وكل هؤلاء تكاثروا وتوالدوا وحلبو وانحلبوا بالطبع لكن ضرعهم لم يجف ويتشقق بفعل الضغوطات مثلي أو يحاصروا مثل تروتسكي في منفاه .

صمت الكلب الأسود عن النباح سريعاً حالما تجاوزناه مما ترك لدي انطباعاً بأن علاقته فاترة مع العم هذه الأيام فقد اكتفى بأداء واجبه ليس أكثر على عكس الكلبة تحت التى ما تزال تنبح بلا طائل ولا تجد حتى من يلقمها بحجر .

5- العشاء والأخبار

بعد أن أثنيت على ترك العم للتدخين مؤنباً نفسي على عدم الإمتثال لطبيب القلب الذي نصحني باعتباري أصغر المصابين بأمراض القلب في عمان، بعدم التدخين نهائياً، عندما كان بإمكاني مراجعته ودفع رسوم وأجور الكشفية وكان ذلك في أعقاب توقيع اتفاقات أوسلو مباشرة حين تعرضت في الأربعين من عمري لأول جلطة وانسداد في الشرايين، دخل العم إلى المطبخ لتسخين بقايا طعام ثم جاء ابن العم، ليعاونه في إعداد العشاء لنا الثلاثة وكانت نشرة أخبار الفضائية تبث الأخبار عن القتلى والشهداء في كل من غزة والعراق وتصريحات المسئولين الفلسطينيين المعروفة مسبقاً بالنسبة لي وليس من جديد فيها يماثل القطط الشيرازية البيضاء التي تصول وتجول من حولي جائعة ومطالبة بحصتها من الطعام قبل أن تفرش المائدة لطعامنا نحن. لاحظ العم تجوالها المحموم فأخرج لها طعامها من المرتديلا التي تشبه ما أتناوله عادة في شقة عزوبيتي المتأخرة التي بدأت قبل نحو 13 سنة. تجمعت القطط حول مائدتها وقد ذكرتني بقطة جدي المدللة التي كانت تجلس على الجاعد قرب كانون النار في بيتنا الأول في الحارة الغربية من سيلة الظهر شتاء عام 1958 قبل تسعة شهور من مغادرتي الأولى للنار الأولى إلى صيف عام 1959 في الكويت في المرقاب .أيامذاك كانت رائحة شواء البطاطا والبصل الطري وما ينبعث من القدر على نار الشتاء في الموقد تدعو ابن السادسة من عمره للزهو حين يدرك أن دفء العناية الرحيمة إنما ينبعث من كفاح الإبن البكر للحاج عبدالسلام الذي بدأ حياته العملية في

حيفا عندما كان في الثالثة عشرة من عمره جالباً لخواته الصغار قبل أن يولد له أخوة ذكوراً الكثير من برتقال بيارات حيفا الثلاثينيات وقد عمل مترجماً في سن مبكرة ورساماً رسم صورة للملك طلال قبل أن يغادر للكويت ربما لا تزال باقية على واجهة علية دار القفاف من آل موسى على الشارع العام الذي يصل مدينة جنين بمدينة نابلس حيث دأب الجد على صرف الشيكات التي تصله من الابن البكر في الكويت لدى محل كرسوع للصرافة بالدينار الأردني قبل أن يصبح للكويت دينارها واستقلالها بسنوات عندما كانت لا تزال تتداول الروبية الهندية ايامذاك. لذلك صار للجد أملاك فوق سفح الجبل الممتد من أعالي جبل القبيبات حتى الجبال الفاصلة بين برقة والسيلة حيث شيد الاسرائيليون مستعمرة لهم هناك. كانت تلك القطعة من الأرض الحمراء الخصبة مؤلفة من نحو عشرين دونماً ومشجرة بالسرو والزيتون والكرز والجرنق واللوز والعنب والتفاح، حيث كان العم الذي يعد العشاء الآن يربي العصافير بعد اصطيادها مؤثراً هوايته تلك على الذهاب للمدرسة ومؤثراً الرسم بالألوان المائية على القراءة التي بات ابن أخيه الأكبر، البكر، منكباً عليها كملاذ ومهرب ومصير منذ عام 1965 حتى يومنا هذا ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أثنيت أيضاً على الطعام وأنا أتبادل مع العم أخبار شجرة عائلة الجد ـ طيب الله ثراه في ثرى وورود وحنون سيلة الظهر ـ وكانت مبادرات الأسئلة نابعة مني وكأنني أنا المقصر فقط بالمحافظة على صلات القربى والقرابة في عائلتنا متجنباً بالطبع التطرق إلى المسائل الخلافية والعويصة

بين الأخوة والأعمام وأولاد العمومة حرصاً على ماتبقى لنا من بعض مشاعر الوحدة الوطنية والعائلية، مثل مسألة اقتسام الإرث الموجود حالياً في حوزة الاحتلال أياً كانت تسميته ذلك الاحتلال ومسماه والتي أثيرت من قبل العم وأخوتي وأخواتي بعد اتفاقات أوسلو ووادي عربة وخروجي من السجن لئلا أصاب بالجلطة الثالثة ويفقدوا بالتالي توقيع أحد الرموز الوطنية من القسمة بعد أن فقدوا الوالد الذي توفاه الله قبل والدته، جدتي، رحمها الله في ثرى سحاب خاصة بعد أن لحقت بها قبل سنوات قليلة والدتي أنا أيضاً رحمها الله بواسع رحمته في مقبرة الهاشمية ليس بعيداً عن رحمة حماتها. وبعد الأحاديث الودية غير الخلافية أخلدنا للنوم كما أخلدت الكلاب والقطط والأبقار والأوز والبط والدجاج والحمارة والقر وربما العجل الصغير المتمرد، رغم أن أصوات الصيصان في بركسات الدجاج كانت ما تزال تسمع باعتبارها ديوك أو دجاج المستقبل أو على الأقل بيض الغد الآتي لاريب .

6- وما الإصباح منك بأمثل

خوسيفا ... خوسيفا ... أنا الثور يا خوسيفا، أين ردائك الأحمر في هذا الليل الليل؟ وأنا الثور المجهول يا خوسيفا فلماذا تتمتعون بطعني في الحلبة في غرناطة في الأندلس في ساحات العبث والتسلية والوغى في هذا الليل والأبقار نيام، إحذري العجل القادم إذن يا جوزيفا فلم أنس ليلة رم بعد ولا نجوم سمائها الواطئة عندما كان الله قريباً منا الله هناك أما هنا

فنحن القريبون منه ولا أحد في هذا المكان المرتفع عن البحر وعن اليابسة وعن الشارع وعن الكلاب وعن القدس وعن القمر المائل عن كل شيء ولا أحد أو نجوم، في هذا الليل الموجوم كدت أصرخ وأنا أرى الستائر خضراء السجادة خضراء الثلاجة خضراء ولا شيء أحمر سوى بلوزتك في إسبانيا الآن والدم المراق من غزة حتى العراق. وتوغل الليل توغل وتغول الزمان تقوَّل فلا حارس مصري اليوم على باب المزرعة ليتفول ولا تعليمات تصدر له بأن يغلق الباب الحديدي ولا يفتحه إن جاءت اللادا الحمراء أو صاحبها تقول. الصمت والديجور كأننا على مقربة أمتار من الله قبور بعد أن أطلق الأنباط على الأنباط النار ومن رؤوسها بالرصاص قُزعت النسور من أعالي واجهة البتراء في الصحراء الدهور. فالزعرورة ماتت والحب الأول هنا دفنته بكلتا يدي وإلى هنا يحج المحتاجون وكل من عليه دين. كان العم قد أدى مثل رحمة جدي صلاة العشاء وكنت بالخبز الناشف قد جردت بقايا الحساء وتذوقت طعم بقايا التين في القطين من الثلاجة والعنب الذي أوشك أن يصبح زبيباً دون أثلاجه وكلي هموم على العجل الصغير خلف مزلاجه. لم يسألني أحد عن السنوات العجاف ولا عن من كان شجاعاً أبد الدهر ولا عن من خاف، حتى اللحاف الأول الذي بالحرام أستبدل تذكرته في عقد بيتنا الأول اللحاف يغطي أماً وقرها يغطي نحاف ولم يكن من الصوف ليدفئنا أيامذاك اللحاف. لا لم تسمعني جوزفينا حتى الآن ولا سمعت بندائي روديكا أو شنيد اللواتي غادرن الأردن والمهرجان والصولجان مبكرات فلم يشاهدن بعد بنات العمومة مكبرات.

7- عواء في ليل طويل

قلت لعمي الذي نهض باكراً، كما دأب جدي، لأداء صلاة الفجر وتفقد المزرعة، كما لو كانت الخلوة، حيث شكلت لي صلاته إحراجاً كوني بلغت من السن عتياً وأنا لا أصلي:

ـ كم من الوقت نحتاج للإنتهاء من الأعمال الصباحية في المزرعة؟

فأجابني دون تردد: «ساعة أو بضع ساعة ريثما نحلب الأبقار وكي لا يجف الحليب أو يتلف»

كانت سجائري قد نفدت مما جعل الحياة أو البقاء للعزلة الإنفرادية في تلك المزرعة ولو لليلة إضافية مستحيلاً، خاصة وأن نقودي أيضاً قد نفدت ولم يعد لدي مشحوناً سوى بطاقة الموبايل والهاتف النقال نفسه الذي حتى وإن اتصلت بأحد من معارفك طالباً النجدة أو المعونة أو الرأفة أو الصدقة أو الزكاة أو طرح السلام أو تحية الصباح لما رد أحد عليك وفي أحسن الأحوال تسجل استغاثتك تلك «مسنك كول»

وهكذا بدأت في هدأة الصباح رغم حاجتي الماسة للنوم، النوم الطويل الذي يليق بالمرتفعات العالية القريبة جداً من السماء أو التي هي فعلاً على العتبات الأولى من السماء كما لو كانت أعلى من التيبت فوق جبال هيملايا بل وأقرب، بدأت أتصفح كتابي بيميني ذلك الكتاب الذي قد يطبع أو قد لا يطبع، فلم أجد منه غير بقايا سطور لا معنى لها فحمدت الله أنه لم يكن الكتاب أو أي كتاب مقدس، ولا هو أيضاً والشهادة لله بذلك الكتاب

المدنس. قلبت صفحاتي فوجدتها لم تزل صافية كأيامي وبيضاء ناصعة كروحي ولكنني يا للأسف لم أكن كما كنت قبل سنوات عندما كنت عقب خروجي من السجن قد لجأت لذات المكان وكنت أيام ذاك صيف 1995 أعوي وأعوي مع الذئاب في البرية وأتمرد وأحتج وأقول ما حان اقتسام الإرث بعد وما حان اقتسام الأوطان بعد وما حان نهش البعض للبعض على رقعة وطن وما حان ما حان البعد عن عمان لأي مكان وأعوي للأيام القادمة من الزمان إلى الزمان علها تفر اليمامات وتفر الغزلان لبر أمان. كنت أصارع الموج تلو الموج وأغوص أحياناً لأظهر من جديد كأنني كان كان العوام. كنت أختفي من الأردن لأظهر في دمشق وأختفي من دمشق التي تأسر دمشق لأظهر في اللاذقية التي إذا ضقت منها أذهب للساحل يوحدني البحر أمامي بالكرمل جيراني وإذا أزف الليل أرقص وبحضني الجنون والجنون راقصاً لا يراقص أقل من مدينة أو بحر.

والبحر ذاته البحر إن كان في جزر أو غير راغب في الرقص أهجره منسحباً لغير بحر. وهكذا وجدتني أيام اللادا الحمراء لا أنهب غير المسافات بين المدن صيف عام 1996 داخلاً أم راجعاً الأردن وقد تناهى إلي الخبر أن في الكرك جوع وأن خبز الفقراء في رجوع وأن الاعتقالات لرفاق ورفاق قد دبت على حين غرة والروح تأبى الخنوع. لم أكن عجلاً يتيماً حين كان ثمة حزب وما كنت تائها حين كان ثمة درب. إلى الدوحة إذن وللراية أو وطن، للشرق للشرق وقد بلغت المحن. وعلى شاطئ دوحة قطر، بنفس رطوبة أجواء الكويت والبحر كان الملاذ وكان السفر، كأنه القدر. ولم أكمل اليوم

السابع حتى وجدتني يا عم عائداً لعمان فلا مفر. وها أنا كأنني ما علّمت أو درّست ولا كتبت أو إنكتبت بالوحل والطين على عجين خبز الوطن.

فاقداً كل شيء كقدرتي على العواء أو الثغاء أو النهيق أو النباح على كل ما هو مستباح. فكرت فعلاً بالنباح لأجد حنجرتي تخونني. فكرت بالعواء الطويل الطويل لكنك أيقظتني. فكرت فعلاً بالهديل لكن روحي لم تطعني وحتى لو فعلت فهل تكون قد صدّقتني. ما للمزرعة صمت وسكوت؟ هل نامت الكائنات عند الفجر وتركنني؟ ووحدي لا تطاوعني نفسي وحدي. وعندما جهز العم للمغادرة حيث تعالى صوت محرك السيارة، كانت السماء زرقاء وليل. كانت المزرعة صمت وخيل. وخيلت نفسي مع كل كائناتها نكاكي ونعوي وننهق قبل أن نزهق، نشنق أو نشهق، ونخور أو نثور وتنبعث أصواتنا جميعًا في عزف سيمفوني قادم، لليل مطبق قادم .

www.nazmi.org.

لا يكتشف الإنسان صوته، ربما لأنه يُسمعه للآخرين، والآخرون لا يكونون كلهم صرحاء في ملاحظاتهم، بل لربما لا يعجبهم صوتك. لم أكن منتبها لهذه المسألة فالإنسان يبدأ أحيانا باكتشاف ملامح وجهه في المرآة ثم ينشغل عن نفسه باكتشاف ما حوله، وقد يكتشف جسده في الحمام مثلما يفعلون أيام المراهقة. بالنسبة لي، تأخرت بعض الاكتشافات طويلا لانشغالي باكتشافات أخرى لذلك لم أنتبه لصوتي وممكناته وخصائصه ومنحنياته البيانية التي باتت تهم أجهزة الاستخبارات والتصنت وعلماء الإلكترونيات والموسيقى وبعض الإناث المتيقظات الحواس.

اليوم، وبعد إجراء الانتخابات النيابية في الأردن، ذات الصوت الواحد، وعدم إدلائي بصوتي فيها، أدركت إن لم أتذكر بعض كلمات الإطراء فيه، أن صوتي مهم جداً، ليس بسبب قدرته الطبيعية غير المفتعلة على تجاوز إطفاء الميكروفونات المتعمد أمام مداخلاتي السياسية منها أو الثقافية، بل ثمة فتيات وسيدات صارحنني في لحظات صدق وحميمية بأنهن كن ينتظرن

في الدورات التدريبية أن يستفزني المحاضر بسؤال فأتكلم، وبالتالي يتلذذن بسماع ذلك الصوت الجهوري. أخريات صارحنني أنهن كن يسجلن بعض الأحاديث الإذاعية لي بحجة أنها أحاديث ثقافية لا لشيء سوى لسماعهن ذلك الصوت. زملائي في الثقافة والفن، بعضهم أبدى هذه الملاحظة باقتضاب، فالصديق بسام هلسه قال لي في لقاء لنا في دمشق بعد انقطاع دام زهاء أكثر من اثنتي عشرة سنة، أنه عرفني من صوتي في مقر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في دمشق، لأن ملامح وجهي تغيرت بعض الشيء بفعل الزمن والمزاج والقهر المبكر.

السيدة ليلى العثمان ـالكاتبة الكويتية ـ وصفته لدى سماعي إذاعيا بأنه صوت «رخيم»، مع أنني لست متأكدا من عدد المرات القليلة التي قرأت أو سمعت تلك المفردة النادرة في حياتي .

المخرج المسرحي المصري عرنوس أبدى إنذهالا بعد مداخلة لي في المركز الثقافي الملكي في عمان فأبدى لي من خبرته بالأصوات ما أدهشني من الممكنات التي يحملها صوتي خاصة عندما أتحدث بانفعال تحمله طبقات صوتي على اختلاف درجاتها كاندفاعات بحر هائج ترتطم أمواجه بعدة أوتار صوتية فلا هو عزف آدمي يذكرك بضربات فريد الأطرش على عوده في مقدمة أول همسة ولا هو صادر من آلة موسيقية محددة يسهل تسميتها وتتبع تواريخ ومراحل تطويرها وتحديثها. لذلك قلت لنفسي اليوم في الأول من تموز عام 2003: لماذا لا أكتب عن صوتي من وجهة نظري أنا وليس من وجهة نظر الآخرين؟ إنه صوتي وأنا حر فيه ولا أريد أن أمنحه

لصناديق الاقتراع المغلقة. إنه صوتي الذي يكتمه كابوس في ليلة أرق ولا يكتمه فقط احتجاز مخفر الشرطة في عمان أومحافظة الزرقاء لبطاقة الأحوال المدنية التي تخصني والتي تخلو على أي حال من أية تسجيلات صوتية لي، بل أبدوا فيها بصورة صماء وأحرف وأرقام ليس أكثر. وزارة الثقافة مثلا، سجلت على أشرطة جميع مداخلاتي ولم تسمعني واحدة منها لعلي أدرك خطورة ما أقول وارتدع مثلا لإدراكي كمستمع لحجم خطورة السخرية في الصوت المتحدث أو الغضب الصارم عند بعض العبارات التي أقولها بإخلاص ولا أسمعها ربما من الآخرين. كمتحدث أكون مندفعا بفعل الشجاعة والأخلاق والمشاعر لقول كلمتي كتلك مثلا التي أدليت بها في قصر الثقافة وتم استدعائي للمحافظة على أثرها ولم أذهب. هل صفق لها ألفان موظف حكومي لأن صوتي فيها كان جميلا جهوريا فقط؟ ولماذا استدعائي لو لم تكن تحمل نبرة احتجاج عالية ضد حرمان أي مواطن أردني من صوته أو من حقه الدستوري بالتعبير؟ لا ...لا.

المسألة أكبر من صوتي وممكناته، لا بد من وجود شيء أكبر من الأوتار الصوتية التي وهبني الله إياها وجعلها في حنجرتي أول المتأثرين من أعضاء جسدي بحكم الإعدام شنقا لا قدر الله لو أن الأمور ساءت ووصلت هذا الحد، إني أتساءل اليوم بشيء من الأسى عن صوتي إن أصبح هو صوت العرب عام 2003 وليس عام 1967 مثلا؟

خاصة بعد اختفاء صوت صدام حسين بصورة مفاجئة عن محطات البث الحي الفضائية. هل لصوتي فضاء إذن وأنا لا أعلم؟ أقصد فضاءات

الحلم والأمل في مستنقعات اليأس والإحباط. هل لصوتي صليل السيوف في الأزمنة الغابرة؟ هل هو مملوء حقا بآخر صرخات الهنود الحمر في البراري؟ من الطبيعي أن يكون صوتي ممتلئا بثقافتي ومن الطبيعي أن يكون هذا الصوت مرتبطا بسحر ما تراه بصيرتي وعقلي من الممكن والقادم والمقبل، فقد كتبت في حياتي مئات القصص وبعضها أكثر نجاحا من بعض القصص العالمية لكنني لم ألحظ شهرة واسعة لها ربما لأنني لم ألقها بصوتي مثلما أفعل في الأمسيات القصصية.

أجل إن الآخرين يقرأونها ويسمعون أنفسهم ويقرأونها بالطريقة التي يريدون تماما مثل الانتخابات الأردنية التي تكون النتائج فيها شبه محسومة سلفا قبل الاقتراع. ولأضرب مثالا على عنوان إحدى قصصي التي نشرت بالشكل التالي في أربع صحف عربية:(بيت الذبابة) في حين أنني لو قرأتها بصوتي لقلت: (بيت ألذُّ بابه) رغم وجود ذبابة ما في الموضوع لكنها لم تكتب وتنشر بصوتي تماما مثلما تفعل بعض المواقع الإلكترونية الإسرائيلية التي تسجل قصصا وأشعارا لكتاب يهود ملقاة بأصوات يهود آخرين ولكنهم ليسوا الكتاب الحقيقيين لتلك النصوص المقروءة أو المسموعة من رواد الانترنت. أتذكر اليوم الجانب السيئ من صوتي أيضا، فقد جربت ذات مرة عندما اشتريت أول مسجلة في حياتي أن أسمع صوتي فصدمت. قلت: هذا ليس أنا فالشخص الذي يتحدث غريب عني لم أتحدث معه ولم أستمع إليه من قبل ولم يرق لي صوته إطلاقا، فماذا لو حدثت الكارثة وغنيت آنذاك أو بعد ذاك لأسمع صوتا أجشا مقهورا لا يحمل أي أمل بالغناء؟ لا ثم لا

وألف لا.. الصمت بالنسبة لي أجمل ويجعلني اكتشف ملامحي لدى تفاعلي مع الآخرين، فلي أيضا عينان تدمعان أحيانا وكعيني صقر أحيانا أخرى وتلمعان بالحديد الأحمر عند بلوغه درجة الانصهار أحيانا في لحظات غضب، فماذا لو تصاحبت الرؤية بالسمع في مشهد تلفزيوني وشاهد بالصدفة الرئيس بوش ذلك المشهد؟ الأرجح أنه سيقول أن شخصا يمارس عليه الإرهاب منذ 52 عاما هو مصدر لا ينضب للإرهاب حتى قبل بزوغ نجم ودولارات العلامة السعودي أسامة بن لادن.

ولا بد لي من الاعتراف والإقرار بحكمة القائمين على التلفزيون الأردني والتلفزيون الكويتي من قبله أنهم لا يظهرون صورا ناطقة لأمثالي خشية استفزاز أمريكا وترسانة أسلحة القطب الواحد، وبالتالي قد يعدمونني مثلما أعدموا سيد قطب. تذكرت الآن أيضا أنني منذ الطفولة كنت معجبا بصوت القائد الزعيم الراحل جمال عبدا لناصر، ولكنني لم أعجب بما رأيت في أعقاب الأيام الستة بعد الخامس من حزيران 1967 عندما سمعت جدي يجهش بالبكاء لفراقنا نحن أحفاده مغادرين سيلة الظهر نحو المجهول الذي ما لبث أن قذفنا نحو المجهول الثاني والثالث وهكذا وطيلة نصف قرن ما يزال صوتي رغم ذلك بالنسبة لي مجهولا، يا صوتي وأحمد! يا صوتي وزرد السلاسل وصفعات أبواب السجون! يا صوتي الذي يذهب هباء في التصفيق ولا أحد.

كم مرة يسلمني للتصفيق الحاد الذي ينتهي بعد لحظات لكن القلب المشحون بالألم والعقل المشتعل بالغضب يسمعان دقات خفق قلوب

المتعبين وأعود فاسمع صمتي غير متمتع بسماع صوت الآخرين وأنا منهم. أسمع صمتي الجهوري «الرخيم» الرحيم الهامس كما اسمع جريان الدم في عروقي وخلخلة البحث عن قطرة ماء لجذوري في هذه الصحراء المتسعة للأمريكان والإنجليز ودول شرق آسيا. والتي تضيق بي وبصوتي مهما كان جميلا وناطقا بالعربية. صوتي مشكلة، خاصة إذا كان دافئا لقلب محب، صوتي سحر وفتنة للنساء، وأني لأدهش لماذا لم يحرم على الرجل صوته؟ فهو فتنة للنساء مثلما أن بعض أصوات النساء فتنة للرجال. ألوذ بصوتي في وحدتي واستعيض عنه بصوت فيروز، ومارسيل خليفة، والشيخ إمام ونادرا ما أسمع غير هؤلاء من المطربين أو من الأصوات. مأساة لو أن ملحناً أو مخرجًا استغل صوتي للغناء. لا أتخيل نفسي مطربا ربما لأن صوتي يصدر من عقلي أولا ثم يحمل مشاعري وصدقي. وأتخيل حقا مجموعة من الطرشان جاؤوا لسماع صوتي فقط، كيف يكون الموقف؟

بل أتخيل نفسي بلا حنجرة أمزق خرائط الدول وكتب الجغرافيا وبعض الفتات من العملات الورقية التي سأكتفي بجعلها مبتلة فقط، فما نفع صوتي إن فقدت عضوا من أعضائي المكتشفة؟ ها أنا اكتشف كل شيء وأسمع كل شيء ولا اسمع صوتي. أحيانا لا أسمع سوى الصدى، وهكذا سيكون الجسد: رفات الاسم ورماد الجمرة ودخان الكينونة. الصوت مجرد ذاكرة لما حلمنا به ... وأحسسنا به .

2003

رجـل الثلـج

خفقات، تضرب، بوضوح، وانتظام وقوة، في طبلة أذني اليمنى، جعلتني أستيقظ، متيقناً أنني لست في حلم. دقات ليست لساعتي اليدوية التي نادراً ما تُسمعْ، وعلى وجه الدقة، تكاتها، مقارنة بضربات ودقات منتظمة، خلتها في البدء لشرايين يدي اليمنى التي كانت لا تزال تحت رأسي. وضعت ساعدي الأيمن كي أتأكد، تحت صدري، من الجهة اليمنى، فلم تتوقف الضربات المنتظمة الواثقة التي لم أكن أسمع حولي غيرها رغم أن غرفة نومي محاذية لشارع فرعي في حي قطنة من العاصمة. أجلت النظر في غرفة النوم، واستوضحت من الهاتف النقال عن أية مكالمة قد أكون تلقيتها أثناء غيبوبتي فلم أجد ما هو جديد على حياتي غير هذا الهدوء الموات الذي يلف كل شيء حول المنزل المغلق النوافذ منذ زمن طويل. وحالما نهضت من فراشي لفحتني برودة غير عادية لكأن المنزل تحول خلال فترة نومي إلى ثلاجة كبيرة للموتى ومع ذلك دلفت إلى الصالة وفتحت النافذة المطلة على الحديقة فهالني اختفاء الألوان والمزروعات تحت حلة شديدة البياض، ناصعة النعومة، ومنتظمة الاستواء. ليس بها ما يشوه سطح ثلجها الناعم

مثل آثار أقدام لرائح أو غادي غير الهدوء المطبق الذي جعلني أعتقد للوهلة الأولى أن من يقطنون الكرة الأرضية إما أن يكونوا فعلاً غادروها لكوكب المريخ، أو أن الشمس لفظت آخر أنفاسها فانقطع تتابع الليل والنهار وتراكمت الثلوج خلال فترة النوم التي لم أستطع تحديدها ولا تذكر أسبابها سوى أنها كانت غير اعتيادية.

الأجواء في الخارج لا توحي بليل ولا نهار. فالثلوج تكسو كل شيء ببياضها الناصع شديد الإضاءة.

***

والسماء في الأعالي رمادية. والشجر لم يعد أخضر لكنه صامت وحزين. والعصافير اختفت. والمارة والسيارات والشارع والجيران وصوت بعض القنوات الفضائية وتكات الساعة على الحائط والهواتف والمذياع وضوء الشارع وحتى الخفقات التي كنت قبل قليل غير قادر على تحديد مصدرها. ولما كان كل هذا غير سيء بالنسبة لي فقد فكرت بهذه النهاية الإلهية للكون من حولي وبصورة أخرى للجنة السماوية الموعودة. فهل أكون قّدْ مِتُ حقاً منذ زمن الغبار والآن أُبعث حياً في جنة لم أتوقعها على هذه الصورة؟ إنها نعمة غير متوقعة في الحقيقة، أن تصحو ذات يوم، فتجد أنك تملك كل شيء ولا شيء. ولما تأملت الموقف الذي أنا فيه الآن وفكرت بأبسط احتياجاتي وأهمها، مع قرب نفاذ السجائر، حيث لم يبق في العلبة منها سوى تسع سجائر، بدأت أستشعر الخطر. فإذا كان كل من حولي وكل شيء قد توقف عن الحياة أو غادرها لأسباب لم أدركها حتى الآن، فمن سيقوم ببيع

علب السجائر؟ وما لزوم الدنانير الخمسة الآن في جيبي؟ لكن الأمر عندما تفحصته ملياً بأسباب منطقية لم يكن قاتماً إلى هذا الحد. بل متوقف على الاحتمالات. فقط عليَّ الآن أن أخرج من هذه العزلة لعلي أعثر على دكان لم يستطع صاحبه تدبر أمر إقفاله بإحكام. فآخذ حاجتي مما يكفيني بهذه الخمسة دنانير كاملة أضعها في صندوق الكاشير إذا كان قد تُرك مفتوحاً أو في فاترينة السجائر مكان العلب التي أشتريها تجنباً لأية مشكلة أو تهمة قد يوجهها لي أي شرطي ما زال على قيد الحياة وما زال يمارس مهنته بانتظار راتب آخر الشهر.

وما أن أدرت مفتاح الباب الخارجي مُغلقاً حتى هالني أن الجو في الخارج أكثر دفئاً من منزلي رغم أن قدميّ غاصتا في الثلج حد الركبتين إلا قليلاً دون أن أستشعر ثلوجة تُذكَرْ سوى من النوافذ المسدلة في الطابق العلوي الذي ـ كان ـ يقيم به صاحب المبنى الذي لا تتبين إن كان في الداخل أم مغادراً حتى في الأحوال العادية. مضيت مطمئناً في الشارع نحو السوبر ماركت لعلي أجده مفتوحاً فأستوضح الأخبار ممن فيه لكنه كان مغلقاً محكم الإغلاق بالأقفال فمضيت إلى غيره في مدينة باتت تخصني وحدي وفي هدوء يخصني وحدي وثلوج تتهاطل من فوقي ومن تحتي تُفَرقِشْ بين قدمي وتتكسّر تاركة ورائي آثاراً لخطوات الطريق لن يسلكها من بعدي أحد وقد غادر الجميع نحو ما لا أعلم من كواكب. كان لإغلاق الشباب الذين أعرفهم لمحلهم بإحكام دليل خير بأنهم عائدون وإلا ما لزوم الإغلاق على عدة براميل صغيرة لصنع المعسل وبضع أراجيل وفاترينة سجائر إن هم قد غادروا إلى

فلسطين نهائياً؟ غير أنني طردت هذا الاحتمال من ذهني حالما عثرت على ما اعتقدت أنه مجرد كومة ثلج عملاقة في منتصف الشارع وبابها الأمامي شبه مشقوق تساقط عنه الثلج حالما فتحته لأجد السائق وفي فمه سيجارة لم يتمكن من إشعالها وبجانبه علبة سجائر فاخرة متجمداً وعلى وشك أن يقول شيئاً لم يتمكن من نطقه ربما بسبب انفجار مفاعل ديمونة أو ضرب المفاعل النووي الإيراني أو ما شابه من حماقات هي آخر ما أذكره من نشرات الأخبار قبل نومي. «رحمة الله عليك» قلت محدثاً نفسي ووضعت له الخمسة دنانير في يده وأشعلت له سيجارته وتناولت علبة سجائره وأغلقت عليه باب سيارته بإحكام. قلت لنفسي كي تشعر بعدم العزلة: «لقد فعلهاإذن السيد بوش» فهل يعقل أن كل هذه الثلوج بفعل برودة نووية؟ أم أن الله رحم عباده فأنهى اللعبة بقدرته عز وجل؟ وقرعت نفسي رغم ذلك، وحمّلتها مسؤولية النوم الطويل. لقد نمت بفعل اليأس أكثر مما يجب فتعذّر شحن الموبايل وتعذّر الاتصال بي في لحظات انتهاء الحياة على الكوكب. وتذكّرت الآية الكريمة التي تقول: ﴿ولا تقنطوا من رحمة الله﴾، وها هو الله رحم فأيقظني أو بعثني حياً كي يمنحني ـ وأنا الماركسي التروتسكي العنيد ـ الفرصة كي أؤمن بقدرته عز وجل وسعة رحمته. فهذا الثلج الذي يغمر الأرض بما رحبت الآن حولي ما هو إلا برداً وسلاماً وقد أفنى من عليه من كل شيء حي ولم يُفْنِهِ وهو قادر على ذلك بعد انتهاء الشمس وتلاشيها. ما لزوم الساعات الآن وما لزوم الساتلايت والسيارات والزوجات والعملات. لكنني تنبهت للخطر المحدق بي إذا ما انتهت علبة السجائر بحوزتي الآن.

ثم خففت من هذا الخطر عندما فكرت قليلاً بكوني الكائن الوحيد الآن على هذا الكوكب وأنني أصبحت زعيماً للعالم ثم ضحكت من سخافة الفكرة لأنني الشعب الوحيد ايضاً ممن بقي فوقه، وإذا طال هذا الأمر فلن تعود بعد اليوم هنالك أية معضلة تسمى قضية فلسطين، اللهم إلا إذا كانت قدرته عز وجل نقلت أطراف المشكلة إلى المريخ الذي بتّ مشفقاً عليه الآن بعد أن حرموه أخيراً من عزلته وهدوئه فانتقل إليه السيد بوش قبل انتهاء ولايته ليقول لسكانه الجدد: لم يكن من سبيل أمامي سوى أن أسحب القوات الأمريكية من العراق وأفغانستان ودول الخليج إلى المريخ قبل أن يصل إليه الإرهاب فقد تبيّن أن النفط الموجود على كوكب الأرض لن يكفينا لتسديد ديوننا ولن يكفي البشرية سوى لسنوات معدودة. وبالطبع لن يحدث مستمعيه عن إنشاء دولة فلسطينية لأن هذا كله بات من الماضي والمريخ أولاً وأخيراً لمن وصلوا إليه أولاً دونما وجود هنود حمر يقطنونه من قبل لتتهم بهم أمريكا وحضارتها الإمبريالية. أيضاً وبخت نفسي عند هذه النقطة، فالأخوة والرفاق في المريخ سوف يقولون إن تيسير تخاذل أو تساقط ولم ينهض للنضال من أجل القضية الفلسطينية وهكذا قررت أن أعد العدة وأن أخلي البيت المستأجر وأسلم مفاتيحه قبل الذهاب مشياً على الأقدام إلى فلسطين. فهل يعقل أن ترحل أمريكا وتفنى الحياة دون أن تأخذ معها تلك الأمريكا إسرائيل حيثما ذهبت؟ وهل يعقل أن الحاخامات لم يصدروا فتوى سريعة من «وكيل العقارات الأكبر» بأن أرض المريخ باتت «أراض مستردة»؟ الأرجح، قلت لنفسي، أَنهم تركوا «التلمود» وراءهم وغادروا

لتأليف تلمود بابلي جديد حيث رحلوا والأرجح أنهم أخذوا معهم بعض الفلسطينيين لتبقى المشكلة قائمة. فعدم وجود الغوييم ينفي مبرر وجودهم. ومع ذلك تظل فكرة الذهاب مشياً على الأقدام قائمة إلى فلسطين، ليس كل فلسطين بالطبع، فما حاجتي لها وغرفة واحدة تكفيني وتفيض عليَّ في هذا الشتاء الكوني الشاسع!

عدت لمنزلي دونما قلق يذكر سوى من وجود صاحب الملك الذي ربما يعتبرني متأخراً في دفع الإيجار إذا لم ينتبه جيداً لوضعي الشيك الشهري في مظروف على بوابة مسكنه بشكل لافت فلربما حتى إذا استلمه ووجد البنك مغلقاً سواء بسبب تراكم الثلوج أو بسبب كارثة كونية يحملني مسؤولية إعطائه شيكاً غير قابل للصرف، لكنني سرعان ما سخرت من الفكرة، ففي هذه الحالة، وليس غيرنا فوق الكرة الأرضية ربما تتسع رؤيته وحكمته بأن الكون سوف يتسع لإثنين، الأول في الثمانين من عمره والثاني على مشارف الستين، وحيث لا وجود الآن للشرطة أوالمحاكم أو المحامين أو القضاة فإن قرر طردي وهو حتماً فاعل، غادرت إلى مسقط رأسي في سيلة الظهر دون أن يغادر هو إلى دمشق. فقد كان آخر ما سمعته قبل نومتي الطويلة أن جماعة14 آذار غير راغبين في أن تذهب فيروز إلى دمشق ـ عاصمة الثقافة العربية ـ والجار العزيز دون تدخل من هؤلاء ولا من أولئك غير راغب في حسن الختام في دمشق مسقط رأسه إلا إذا كانت لديه معلومة لم أطلع عليها بعد، بأن مصير من غادروا أن يعودوا ليفتشوا عن سكن وعن مأوى وأن الوضع في دمشق سوف يتحوّل إلى أسوء مما دفعه أساساً

لمغادرتها ونيل الجنسية الأردنية. وفي هذه الحالة تكون دمشق وسيلة الظهر وعموم فلسطين الجغرافية صالحة لي أو لأمثالي على الأقل. لكنني وبعد أن تأملت ملياً الستائر المسدلة، وعدم وجود أية حركة في الطابق العلوي من تلك الفيلة البائسة حيث أسكن في التسوية السفلية منها، أيقنت حقاً أن حدثاً كونياً قد وقع وأنني الناجي الوحيد من محارق البشرية. أدرت المفتاح فاستجاب وكانت برودة المنزل وبرودة الخارج متساوية لا فرق بينهما ولم أستطع أنا أيضاً سوى أن أدير ا لمفتاح ثانية بقفل الباب مغلقاً إياه بحكم العادة والركون إلى العزلة التي أراني اليوم كسبت رهانها المضيء كما لم يكسبه أي ثور من الثيران المتناطحة في قصر العدل على المال والحسابات وقوانين الربح والخسارة وأدوات المحامين وقرارات الشطارة. ومع ذلك ظلّت فكرة الموت الجماعي، أو الرحيل الجماعي مستعصية على إدراك حواسي وعقلي. فأن تصحو فجأة لتجد أنك دونما زمن ودونما أخبار ودونما شمس ودونما عمل ودونما دقة على الباب أو على الهاتف ودونما ليل ودونما نهار لأمر يصعب على الفهم وفيه المرء يحار.

***

لم أشغل نفسي بما يدور حولي في هذا الكون أكثر مما شغلت من الزمن الذي مضى ليفضي إلى كل هذاالثلج. ولو وضع كائن ما في وضعي الحالي ورأى ما رأيت لصعق فوراً. فهل هذه هبة منه عز وجل لكائن حسيب ورقيب على نفسه بفعل التربية الذاتية والتعوّد؟ إن كانت، فهي متوقعة ولم تدهشني رغم مفاجأة التوقيت. لذلك وجدت نفسي مع علبة من السجائر

وكوباً من الشاي البارد أعيد قراءة كتاب إسرائيل شاحاك: «وطأة 3000 عام»... فلكم أحترمه وأجلّه هذا الإسرائيل شاحاك الذي لا أعلم اليوم إن كان وقد ناهز الخامسة والثمانين من عمره، بحسب التاريخ الذي نمت به آخر مرة ما زال على قيد الحياة أم أنه ما زال حسب أكذوبة «واشنطن بوست» متوفى منذ عام 1980م. فالكتاب الذي اليوم أقرأ مكتوب في آب عام 1993 عندما كنت سجيناً في سجن بيرين على أطراف الزرقاء. وقبل هذا التاريخ بسنوات عشر أظن أنني كنت عاكفاً على ترجمة كتاب آخر للفلسطيني فواز تركي، وكلاهما له معزة خاصة لدي. وبعد أن تحول كل ماء الكون إلى ثلج ناصع مشع البياض يليق بمعجب مؤمن مثلي وقد قرأ سفر التكوين أن يكرس وقته اليوم لرثاء ما كان بعد أن وصلنا إلى ما سوف يكون. ثلج ثلج ثلج فما عاد هناك ليل ترتعش صفحة مائه رعشة التكوين فيكون الخلق الأول للحياة. وما عادت للشجر المعطي الصامت شمس كي تحيا الوردة ويفوح منها العبير. ثلج ثلج ثلج. جمدت الكائنات وأخلدت للصمت.

قال الله للمؤمنين جميعاً: كونوا ثلجاً كي أراكم بناصع طهركم وبياضكم الأول الأشد إنارة من أكفانكم. وقال الله للمؤمنين وللملحدين جميعاً: ثلجاً كونوا للحياة الجديدة أنصع من بياض ثياب العروس. ثلج ثلج ثلج لا يذوب ولا يذوي، لا يبطن ولا يخفي، ولا يضمر إلا الوعد. برد برد برد يميت الشهوات والملذات ويمنح كل قلب بهجة الدهشة الأولى والدفء الذاتي من القلب. أدركت الآن أن الخافق الأول قلبي. وأن من دق بقوة

وانتظام ووضوح ليُسمعني، لم يكن هذا الفجر وما هو بفجر. ولا هذا المساء وما هو بمساء، لم يكن سوى قلبي أنا الذي خدمني ستة وخمسين عاماً دون أجر، والذي رغم الإهمال وسوء الحال ما خذلني، قلب صغير رغم أن الرأس اشتعل ثلجاً ظل رغم الجلطة الأولى ـ أيلول 1993 ـ فتياً يناضل وحده وفتياً رغم تدخين ما يناهز الأربعين يومياً من السجائر يعمل دون رعاية بدأب كما يليق بسنديانة. فهل وصل قلبي هذه الساعات إلى المعجزة أم أنه عز وجل يريني من آياته آية ومن عفوه سماحة كي أعيد قراءة 3000 عام كما كتبها رفيقي الإنسان بغض النظر عن مسميات الأديان أو احتكار الأنبياء والرسل واضطهاد الأغيار. ومع ذلك، كنت أقرأ، أسجل الملاحظات، أمتحن الذاكرة ، وأصاب بنوبة من التفكه والضحك على العالم خارج عزلتي. فمما خطر ببالي وراود خيالي المشاهد التالية، خاصة بعد المشهد الأول الذي تحصلت منه على علبة السجائر:

ثلج ثلج ثلج فأمثل بين يدي الآن ولا تتأخر.

سأمثل واثقاً مبتسماً بعد زوال ما كان يبعث على أعلى القهقهات. ثلج سؤالي الأول. دِفء يكون الجواب. لماذا سلبت ميتاً علبة سجائره؟ أعطيته ما يحتاج قبل أن تمتد يدي على سجائره الفاخرة. ودفعت له، إن هو عاد، كل ما أملك من نقود. ثلج ثلج سؤالي الثاني. يهودي أرثوذكسي أنت؟ بل ماركسي تروتسكي استخدمت ما وهبت من عقل فإذا بي ضد قبح الرأسمالية وبشاعة المجمع الصناعي «العسكري» واستخدمت ما وهبت من القلب فإذا بي تروتسكي النبض والإدراك. لكنك مارست سلوكاً تلمودياً بابلياً بعدم إنقاذك لحياة إنسان اعتبرته دون علم من الأغيار. باسماً أقول: أنه عاش الدفء بما يملك ومنحته ناراً لم يبلغها، وعشت أنا الدفء بما يخفق فاعتدت أن أحرق وأحترق ليس بأكثر من سيجارة، وهو كذلك وجدته ميتاً متجمداً بسيارة، ولو أنه تصادف أن كان حياً يسعى ما كنت أظن أنه سيتوقف لي بإشارة، ولو عاد إلى الحياة ثانية لما رضي بأضعاف ثمن

العلبة الذي يبصره بين يديه ولاعتبر رفع الأسعار في هكذا ظروف شطارة. ثلج ثلج ثلج فاذهب إنك لمؤمن بكل الأديان التي أنزلت لأجل الإنسان ولتبق منزوياً في عزلتك بعيداً عن كل الأوثان. بوركت، بوركت أن جئتني واثقاً مبتسماً فلا تشعل اليوم ناراً فأنت الثلجُ والنارُ.

ماذا لو!

عجبت فعلاً من عاداتي، ومن تحليلاتي، فقد كنت في ما مضى من دهشات، تخرجني عن السائد والمألوف، أشتعل حماساً للمعرفة. حيث هي الوحيدة التي تجعلني أتفهم في سياق علمي منطق وتسلسل الأحداث وصولاً للواقعة، تماماً كما هي معادلات الكيمياء التي جهدت كي أحبها هي وعلوم الرياضيات، فلو أحببتها لكنت السباق دون غيري من حيث الأحقية لحل القضية الفلسطينية حلاً مريخياً. وأول الدهشات كانت استيقاظي المبكر على حرب الأيام الستة حين استراحت إسرائيل في يومها السابع على هضبة الجولان وسيناء وكامل الضفة الغربية في ما يعرف لدى حاخاماتها بالأراضي «المستردة» فعملت بكدح ذهني فذ طيلة سنواتها التالية لتفهم أسباب ومنطق الهزيمة. وبالمثل يوم استيقظت على رنات الهاتف كي تطلب مني زميلة في العمل أن أنظر فقط من النافذة لأرى الدبابات العراقية وهي تمخر الإسفلت من تحتي في الشارع الرئيسي للفروانية. أما أن تنقطع عني كل وسائل المعرفة من صحف ومذياع وتلفاز وحتى انترنت وأتكيف تماماً مع كل هذا لأهرع فقط لقراءة شاحاك مجدداً فهذا ما لا يخطر حقاً ببال. فكل هذا الثلج لي وكل هذا الهدوء والموات دون أن أكترث أو حتى

استغل فرصة نهاية الحياة وفوزي بموقع سيد البلدان قاطبة دون عباد أسودُ أو أتسيد عليهم فهذا حقاً مُستهجن، بل ما هو مُستغرب حقاً أن أطرد كل فكرة تدعوني للخروج من هذا المكمن ولم أكتشف كم فعلت بي العزلة من قوة بأس في التصوف إلا الآن، بل وكم أنا غير مبالٍ إلا الآن. فقد كان بإمكاني التجوال أكثر في العاصمة، وزيارة السجن فيها لإخراج المساجين المساكين الذين لن يعلمهم أحد بما يجري خارج أسوار السجن أن يدركون كيف أصبحوا الآن أحراراً بفعل الكارثة أو بفعل رحيل أهل هذا الكوكب بقدرته عز وجل إلى كوكب آخر ليعيثوا فيه فساداً بعد أن فسدت الأرض وأتلفوها وبعد أن نهبت أمريكا حتى الشمس.. بل بإمكاني أن أتبع الطرق القانونية وأزور قصر العدل، فليس من العدل أن تضرب الأرض بالقنابل النووية ويحرم على رجل مثلي مراجعة ملفات قضايا تُجددُ إعادة المحاكمة فيها لإحقاق الحق والعدل، بل وسوف توجه لي الـ UNCAC كتاب شكر من المريخ كوني تمكنت أخيراً من محاربة الفساد في الدول النامية، الكتاب الذي لن أشكرها عليه بالمقابل لأنه لم يعد اليوم لا ثمة دول نامية ولا نائمة ولا مستبدة ولا مستبد بها بعد انغمار واندثار كل شيء تحت الثلج. فلكم نادت منظمات وهيئات دولية وإنسانية وناشدت أن رأفة يا أمريكا بهذا الكوكب سواء بعد ثقب الأوزون أو تحكم حاخامات التلمود البابلي بمصائر الشعوب ونهايات الطرق والدروب أو انقضاض الرئيس بوش على نفط بحر قزوين ونفط العراق، وعجبت من نفسي أكثر عندما أغلقت باب المنزل داخلاً بطواعية إلى هذا الصقيع دون ان أفكر ولو قليلاً بالرفيق

فيدل كاسترو وشافيز وأحمدي نجاد أو أن أطمئن عليهم على الأقل أو أبارك لهم إن كان بوش وأزلامه فقط هم من هربوا إلى المريخ بعد ان ثبت أن شعوب الأرض قاطبة بما فيها شعوبهم سوف تتمكن من محاسبتهم لما أوصلوها إليه من حال. وأيقنت بعد لوم وجلد الذات أنني في النهاية أسلك سلوك رجل ميت أو يائس تماماً ولكن لست مع كل ذلك انهزامي أو تنقصني الشجاعة، أجل، أعرف أنه ينقصني الأمل. ولكن بعد ماذا؟ كل هذا الثلج لي؟ ما زال الثلج يتساقط ويتساقط ينثال أنثيالاً غزيراً هذا الثلج ويرتفع. اقرأ وأنظر إليه بين الفينة والأخرى وإلى أقراص الأسبرين مميع الدم أنظر إلى ما تبقى من ماء. وفي النهاية لا حول ولا قوة لي سوى أن أريحه هذا القلب بإرادة مني وبمبادرة احترام متبادل تجاهه هذا المسكين الذي يعمل ليلاً نهاراً منذ 56 عاماً ولم يطلب النوم أو الصمت بمثل ما أنا فاعل. في النهاية لسوف أنام من التعب أنا أيضاً حتى وإن فقدت بوصلة الليل والنهار وعقارب الساعة قد باتت تدور بمجانية وعبثية لا مثيل لها. الآن... الآن أملك كل شيء ولا شيء. الآن وليس قبل الآن أنا في جنة الثلج الثلج الأبيض. الآن أدرك أن هذا الثلج كل الثلج حولي كفني الذي تهبه الطبيعة أو الكارثة لي. وما عليَّ سوى .. لحظات لن أتوقف فيها عن الكتابة تماماً كما لم يتوقف سائق السيارة المسكين عن قيادة سيارته باتجاه عبدون. الآن ليس بوسعي إلا أن أسيطر على الزمن بعد أن كان هو السيد المستبد. سأقرأ وساكتب حتى النهاية، ومن الطبيعي أن أنام في النهاية، ولكن دون هتافات من حولي أو عويل. سأنام وحولي ثلج أتمنى ألا يذوب، ألا يذوب إلا ببزوغ شمس جديدة.

القبلة الأخيرة

ما أن شرعت بقراءة الفصل الأول من كتاب شاحاك حتى تذكرت القراءة الأولى له ولم أعد أجد في المتابعة متعة وكشوفات القراءة البكر التي ظننت أن ثلج النسيان قد دثرها تماماً ، لذلك قررت أن أذهب لفراشي عن طيب خاطر فوضعت فوق جسدي كل ما لدي من أغطية وتركت رأسي مكشوفاً مخافة الاختناق لا من صوبة جازولين لم أعد أمتلكها ولا من أية وسيلة للتدفئة بل من جو الغرفة التي أظن أنني أستهلكت كل ما به من أوكسجين. كنت على وشك المغادرة أنا أيضاً عندما لامس خيط رفيع قصبة أنفي فطردته. وبعد دقائق عاود الكرة دون أي مسبب من البطانية التي لم أحركها فأدركت من تكرار هذه الملابسات أن ثمة مخلوق آخر يشاركني البقاء وهو العنكبوت الذي يعمل منذ شهور بدأب على بناء بيته. وعلى الفور عكست وضع رأسي إلى الجهة المقابلة وتحديداً باتجاه القبلة التي أرشد بعض من يطلبون الصلاة لدى زيارتهم لي، لها. فأرحت نفسي وتركت المجال رحباً لها تلك العنكبوت كي تؤثث بيتها كما تشاء دون أي تخريب مني ما كنت في السابق أقصده لو توصلت لمعرفة أن الخيط خيطها وليس من

اللحاف فوقي. وظل الجو صقيعاً حتى تحت الغطاء الملفع هو الآخر بأغطية الشتاء والصيف. ما من سبيل للنوم، هذا ما أدركته، فكيف لمثلي أن ينام مرهق الضمير بما سبق وأن خر به من دأب تلك العنكبوت؟ فجأة تذكرت الشجرة في باحة رقعة الحديقة التي يطل عليها الباب الخلفي للمنزل من جهة المطبخ. ماذا حل بها يا ترى وهل ستنام الليلة مغطاة بالثلوج هي أيضاً؟ نهضت فوراً وفتحت النافذة المطلة عليها لأجدها تبكي بصمت. يا الله ما أصبر الشجر وما أعظمه. لم أشاهد في حياتي شجرة تبكي إلا الآن. ومن الثلج المتراكم فوق فروعها وأغصانها تنحدر الدموع القليلة. كفكفت ذلك بحنو يدي مزيحاً الكتل البيضاء عنها. بل وداعبتها قليلاً كي أبعث فيها الأمل مجداداً بأن حلة النوار قادمة إليكِ في الربيع المقبل فعلام البكاء! ولحظتذاك كنت قد نسيتُ بفعل التعود أن الشمس انتهت وأن الشتاء النووي دائم وأن من أكلوا ثمارها واعتنوا بها قد غادروا هم أيضاً لا أعلم إلى أين. وفعلاً تحسنت حالتها النفسية وأخلدت للصمت بعد زوال معظم الثلوج فوقها. عند ذاك أيضاً، ورغم مرور ثلاثة أيام على وفاة الدكتور. وعدم تمكني من الذهاب لا للجنازة في كنسية الروم الكاثوليك ولا لبيت العزاء، عند ذاك قلت لنفسي: ليس بالضرورة أن تموت الأشجار واقفة، بل ليس بالضرورة أصلاً أن تموت لولا اجتثاث الآخرين لها. أو نظراً لاستخدام الفقراء لها للتدفئة. فالشجر لا يموت إلا بموت الإنسانية، بل ربما هو الأبقى والأكثر خلوداً. لم أطل التأمل حالما انتهيت، قبلتها عند الساق كما لا تقبل أنثى آملاً منها أن تكون أحست بي مثلما أحس بمعاناتها وآملاً أن تفهم أنها الكائن

النباتي الأخير الباقي مؤنساً لعزلتي في هذا الفضاء المليء بالثلج حتى نهايات المجرة وآملاً من لقاءنا في هذه اللحظات أن يكون كلانا قد قام بالتعزية للآخر بالمرحومة الشمس التي رغم كل ما بذلته للإنسانية لم يعد يتذكرها أحد الآن إلا بفعل الحاجة. أما السيدة المحترمة أنثى العنكبوت فلا دخل لها بالعلاقة بيننا، بل هذه سنة الحياة. الحياة لديها أن تعيش عازبة وقاتلة في نفس الوقت لمن كان ذكرها، الذكر، والعريس ومع ذلك أريد أن أنام بهدوء، لا أن أنام قاتلاً لو أنني فكرت بهدم بيتها وملاحقتها و«سحقها». لا أدري بالطبع على أي دين أنام، بقدر ما أنا مؤمن وبيقين من صحة أفكاري وممارساتي. فها قد وقع ما حذرت منه طوال حياتي، وما أدركته بفضل العلم وليس أي دين بالضرورة، ومع ذلك وهبني الخالق كل هذا الثلج كي أكونه ويكونني، كي يكون هو نهايتي ولست أنا الفرد البسيط نهايته، وعلى ذكرى الشجرة أغادر وعلى ذكرى القبلة أنام

قال هاجسي:

كل افتراضاتك خاطئة، فلماذا لا تفترض العكس، أي أن الكوكب تحول إلى ما يشبه المريخ أو أي كوكب نأى بنفسه مثلك عن الشمس وعن المرأة وعن الأحزاب وعن الإمبريالية وعن الشيوعية والأديان؟ فقلت: ربما، فآخر ما أذكره عن صديق متدين لي ذات صلاة جمعة أن قلت له: (معتذراً عن تحقيق أمنية له طالما راودته بحسن نية تجاهي أن يهديني الله فنذهب سوياً للصلاة المباركة) «أدْعُ لي في صلاتك!» فقال فوراً: «ربنا يأخذك.» ورغم التأخير الإلهي في الاستجابة لدعوته، أفكر الآن أيضاً أنه ربما استجاب عز

وجل فأرسل بي إلى هذا الكوكب وحيداً فقال هاجسي مقاطعاً:

ولم ينزل عليك الثلج في الشوارع مخافة أن يذوب الثلج وتبتل من عاليك لأخمص قدميك بالماء كما حدث لك في الفيضان الذي غمرك ذات شتاء، فلم تمت بحكمة من لدنه كي تؤوب. في تلك اللحظات كانت زمجرة الريح قد بدأت تعصف في الخارج، عواصف دون رعد ودون برق ودون ماء. فقط أعاصير تهب على ما يبدو من كل الجهات بالشجرة في الخارج التي تقاوم الآن ببسالة منقطعة النظير كي لا تنام غير واقفة أو تحتضر، إن هي لم تقاوم، بمنأى عن جذورها. يا إلهي، كم سمعتها صغيراً عبارة «يقصف عمرك» وفي البدء كانت بفعل الإعجاب ثم ما لبث أن تحول ذلك الإعجاب إلى اعتزاز قبل أن تحوله الأمكنة إلى ضغينة فقبل أن أذهب إلى قطر من أجل فرصة عمل كنت أنا البادئ بقصفها تلك الفرصة. فجأة صوت انهيار في الخارج، حدقت في النافذة فإذا بالبيت المقابل قد سوي بالأرض من ثقل الثلوج التي لم يحتملها ومع ذلك لم أسمع صراخاً ولا استغاثات نجاة ولا هرولة ولا شاهدت أحداً يخرج منه أو يهرع إليه. فالقوات المسلحة بقضها وقضيضها تنزل إلى الشوارع والساحات لمقاتلة الثلج ومهمات الإنقاذ لا تتحرك من قبل الدفاع المدني إلا بتبليغ هاتفي أو عبر اللاسلكي أو البث المباشر. وكان البيت قد أتى على سروة جواره فقصف عمرها للتو.

قال هاجسي:

أية إنسانية تدعيها وها أنت لم تهرع للتبليغ أو المساعدة وأنت ترى بأم

عينيك ما يحدث لجارك المقابل؟

قلت طارداً توبيخه بتوبيخ مماثل:

وهل رأيت بشراً يدخلونه ذلك المنزل منذ عشر سنوات؟ فلماذا لا تفترض أنت الآخر أن أصحاب البيت من أولئك الذين يمتلكون بيوتاً هنا ويقيمون ويعملون في دول الخيلج أو أمريكا؟ أما السروة فليس ثمة بيني وبينها علاقة منذ حرمت من مشاهدة سرو سيلة الظهر الباسق العملاق في مرتفعات جبلية في فلسطين قل نظيرها جمالاً وألوهية وقداسة وهذا المنزل الذي هوى ليس ببساطة مقام النبي لاويين أو النبي سيلان في مهد الطفولة الثلجية أيام مواقد النار. فكف الهاجس عن محادثتي وطار، كما النوم من عيني الساهرتين على الشجرة.

غفوة التنين

تمادت العواصف عندما لم تجد جبلاً يردعها أو يربت على كتفيها قائلاً: شاهدت مثلك كثيراً من الرعونة الهوجاء فاستريحي قليلاً وانظري لكائن الثلج الغافي هنالك عند عتبات النبي سيلان. أو على الأقل إهدأي لعلي أفهم مبتغاك من الهبوب. فإن قصدتي تلك الشجرة في حديقة البيت المستأجر في عمان فهي لك دونما زعيق إذا جد الجد، فالمؤجر من أصول سورية سيحتمي إن هو شاء بجبل قاسيون لعله يرمم ما انقطع له من جذور في قدسيا أو ما سلب منه من كبرياء في الجولان أما المستأجر فهو الإبن البكر لي ما زالت أغنية فيروز «يا جبل اللي بعيد.. خلفك حبابينا» تعصف به منذ أربعين عاماً ولم تقطع له جذراً واحداً من قرميته العتيدة الممتدة على كتفي القبيبات «أنا» من سرو وكرز وزيتون وعنب وعرائش الدوالي. حتى مستوطنة «هوميش» أنقذوها منذ سنوات من القادم والآتي. فلو صدق يهودها في ادعائهم التوراتي أو التلمودي لما شيدوا مستعمرتهم على كتفي اليسار ما بين برقة والسيلة الرابضة على ظهري وإن شئت في أحشائي منذ تمجلست بفعل الخالق الأحد فوق هذا اللحد.؟ ولشيدوها هنالك. انظري

أيتها الجوفاء، في السهل المؤدي إلى سواحل حيفا حيث مقام النبي لاويين. فهل جاء مستوطنوا حوميش للتعبد هنا أم للسياحة؟ لقد شيدوا بيوتهم كما كانت تشيد في أوروبا وأهالوا طعامهم في وجه جنود شارون الذين جاؤوا قبل ثلاث سنوات لإخلائهم وسكبوا زيت الزيتون المقدس في الشارع الصاعد إليها تلك «الحوميش» لتنزلق آليات «جيش الدفاع» وتذهب للجحيم عندما اقتربت من رأسماليتهم المؤدية للإمبريالية الأمريكية. فأهدئي أيتها العواصف الرعناء. ولعل الهدوء يجلب لك السكينة والعزلة ومن ثم البصيرة. فما الرجل الساهر قرب تلك الشجرة سوى الابن البار للهدوء والعزلة، ومنها يستمد إسلامه السموح مع أهل الكتاب. فهو لم يطرد في حياته نملة. ومنها يستمد انجيله الخاص وتوراته الخاصة، إنه التلمود غير الحاقد، وهو التنين الراقد في سفوح عمان المدينة التي تشبه الثلج في هشاشته. فكم استغرق معك هدم ذلك البيت الذي شيده أصحابه ليهدوه إلى أمريكا أو مراتع النفط؟ ليس سوى دقائق معدودة وتقوض. أما ذلك الإنسان الساهر على ضميره وذكرى الشجرة، فوفيٌ لابن الشجرة* وثمر الشجرة وورق الشجرة. لن تقتلعيها من ذاكرته ولا من ضميره ولا من شروش يديه الناتئة بانتظار جلطة قادمة. وإذا كنت لا تريدين الهدوء وتتعجلي البوليس والدائنون وفواتير الكهرباء والماء وتلفيق تهمة جديدة فلست امرأته أيتها العاصفة الجوفاء كي تمكني منه الأعداء. إهدئي ياما ثار وماج وهاج غيرك وفي النهاية استكان قرب نفايات الزرقاء موطنه وقرب صحراء الأزرق نهايته إذا ما كان رجلاً من الرمل أو شجرة من الشوك.

لا... لن تقتلعيه إلا من حدودك الجغرافية، وحدوده توراتية، والأسرار باتت مكشوفة أمام هذا التنين المتقدم نحو أفق الثلج والحرية. أهدئي، بل انخمدي أيتها المدعية الرعناء فقواتك المسلحة لن تقضي على الثلج بهراواتها ولن تسقط الكوكب برصاصة ولن تعتقل الأفق الجديد بأقفال تم صنعها في اليونايتدكنجدم. فلعلك تتأملين ما يتأمل وتتخيلين السنوات المقبلة كما لا تتخيلها إدارة بوش وحكومات أبي لهط العاجزات عن تسديد المديونية لكن الجبل البعيد ظل يخفي سراً بأن الشمس لم تنته تماماً. وأن رجل الثلج كان يعتقد يائساً أن النهاية حلت، ويعتقد واثقاً أن الله عز وجل يحبه على ما هو عليه أياً كانت ظنون ومعتقدات الفانين من البشر. ولم يبح الجبل لحظتذاك للعاصفة بكل ما لديه فقد كان يعلم أنها عندما تشرق الشمس من جديد، ويذوب رجل الثلج الغافي عند عتبات مقام النبي سيلان، ويذوب الرجل الساهر في مرقده يتلظى في عذاباته أو تأملاته، سوف تدلف العاصفة إلى أقرب مركز للشرطة للإدلاء بإفادتها. ظلت العاصفة منصته. فغفت الشجرة قليلاً، وظلت العاصفة تستمع لجبل يعقلنها ويشد من أزرها ويبصرها كي يلهو في النهاية بها عن الحسد كي ينأى بها عن الجسد، وكي يسوي لها روحاً لرجل الثلج كي يجدها له، وبه، عندما يذوب ويستيحل إلى ماء يذوب مجدداً في السيول، السيول التي تتجمع وتتكاتف ومن جبل القبيبات تهدر في الوادي، الوادي الذي يحاول منذ الأزل أن يصل مشارف شطآن الساحل، إلى حضن أبيه، البحر، إلى حضن أمه، الأرض.

***

أضاءت ملامحه ابتسامة عندما تذكر قصة نورما اللبنانية ورجل الثلج الفلسطيني، لكنها اختفت عندما تذكر المؤلف. كان في قصة يحيى يخلف رجل الثلج هو الذي يذهب لزيارة نورما بائعة العصير النحيلة ثم يعود أدراجه للمرابطة في الجبال أما الآن فإن رجل الثلج أصبح في كل مكان ونورما أصبحت لبنان بل وأصبحت عمان إذا ما قيس الأمر بمشهد الثلوج والثياب البيض. الفرق فقط في درجة الجمال عندما تنزع كل عروس ما عليها من طلاء وألوان. ضحك لنفسه عند هذا التوارد. فعندما يذوب الثلج في عمان... غيره عندما يذوب الثلج في لبنان. لكم أحب لبنان التي يراها. فكل من صعد قمة جبل القبيبات قال مشيراً للشمال: تلك هي لبنان، عندما يشاهد قمة جبل الشيخ مغطاة بالثلوج لفترات طويلة من السنة قبل أن يلحظ الزرقة الداكنة عند سواحل حيفا أو يقول تلك هي حيفا أو تلك هي يافا. ربما لأن الزرقة كانت وفيرة في السماء كنا نحتاج فقط للأبيض الناصع الثلجي الذي بالكاد كنا نراه في خرق العجائز المسنات لكثرة ما كن ميالات لصبغ الأبيض الناصع بالنيلة الزرقاء أو السماوية لكسر حدة الأبيض في سطوع الشمس في الصيف، تلك التي لا تحتملها عيونهن بعد سن السبعين والثمانين أو التسعين. فأين منهن نورما اليوم التي لا تكبر ولا تشيخ. وأين منهن اليوم رجل الثلج القابع مثل تنين قد تندلع من فيه النار في أية لحظة. ألم يندلع من الجوع أهل غزة إلى سيناء؟ هكذا ستندلع النار إذن من فم التنين نحو قصر العدل أو غيره من القصور في أرجاء المعمورة. ضحك من لفظة «المعمورة» الدارجة الاستعمال رغم أنها غير معمورة

صحارى العرب سوى بالخراب الذي جَمَّلَهُ عز وجل بأثواب من الثلج كملهاة وجيزة وسبات قسري للناس كي تكظم غيظها على جوع وبرودة. لم يكن في تلك الليلة ـ إذا جاز لنا الوصف ـ متأكداً من نهاية الكون، بل من اتساعه، ولم يكن متأكداً من حكاية النزوح إلى المريخ بل من أن المريخ جاء إليه. ولم يكن متأكداً من حكاية نهاية الشمس، بل من أن الشمس في اليوم التالي ستندلع من عينيه ، فقد هدأت العاصفة وخمد زئيرها، لكنه لم يهدأ ولم تخمد جذوة الاشتعال فيه، لقد نامت الشجرة وهو لم ينم من حلاوة وعذوبة ولمس تلك القبلة فقد وجد راحة يده على حرش من لحيته النابتة بلا هوادة وبلا انتظام، ينام لعله ينام.

قال لنفسه:

بعد ست وخمسين عاماً لم أزل في القرآن الكريم عند أول كلمة من أول آية، إقرأ... ولم أنتقل بعد لأية كلمة تالية لتجعلني أحس بامتلاء كينونتي. أما في سفر التكوين فقد كنت عند رعشة الماء ما بين الظلمة والضوء ولم أزل إن لمن أكن تراجعت عن ذلك مع تراكم الثلوج الذي يصعد يصعد ليلامس بالأبيض الناصع رماد السماء المكفهرة بلا وضوح أو لون محدد. ثمة فرق ولا شك أن صقيع سيلة الظهر في الخمسينيات كان حافي القدمين، والآن أنجزنا والحمد الله في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين استيراد أحذية من العين أو من البالة في وسط البلد تكفي لكسوة شعب أو نصف الشعب إذا ما طرحنا من التعداد العام عدد البساطير. هل مات حقاً إسرائيل شاحاك؟ لن أسأل «الواشنطن بوست» على أية حال أو ثوماس فريدمان في النيويورك تايمز. فقط أريد أن أطمئن عليه في الثمانين من عمره. أما قناة الجزيرة التي أذاعت نبأ وفاة الحكيم فليس لها أو لأحد

أن يعتب عليَّ بعد انقضاء خمسة عشر عاماً على وجودي في الأردن عارياً في مواجهة الأعاصير وتنفيذ استدعاءات الجلب إن لم أذهب لإلقاء النظرة الأخيرة أو للسير والهتاف في المسيرة أو لحمل باقة ورد له في الكنسية أو لوداع رفقته في سحاب. فلم أتحدث إليه مرة في حياتي ولم أزر بيته أو يسأل أحد منا عن الآخر منذ البرنامج المرحلي في النصف الأول من السبعينيات. لكنني أكتفي من سيرة حياتي بأننا التقينا ذات مرة في المصعد. وكان مرافقه قد احتجزه لصعود الحكيم، فعدلت عن عدم استخدام همتي في صعود الدرج باستخدام ساقيَّ في الصعود والهبوط وكان لسبب «سري» قد اعتذر مستخدماً كلمة «إبني» في التعريف بي. لكنني لا أخفي أنني منذ أكثر من أربعة وثلاثين عاماً ما زلت عند نقطة حرجة ما بين القومي والأممي وما بين الوطني والقومي لم أبرحها إلا نادراً مهما كان حجم الصعود أو الهبوط ولو بالطائرات. وأنني في الانتظار لما هو آت. وأنني ما عبدت في حياتي صنماً ولا عبدت اللات. وأن الرفاق على اختلاف نهاياتهم لهم الحق كل الحق في الإنشاد وفي حمل الرايات. أما أنا فلا راية لي كي ألوح بها ولا غد ولا عقارات ولا بنايات. لكن الثلج حاصرني فلا رن هاتفي ولا مرت بي كل هذه السيارات. وفي عزلتي لم أزل متمترساً ليس في غايتي إلا المزيد من الثبات. هل لكم أن تسجعوا عوضاً عني وعن هذه اللغة؟ بالأمس كان قلبي يخفق ولم أنتبه أنه هو. يا له من قلب قوي على المشقات والنكبات والنكسات والهزات والرعشات. لكنه أيضاً بات واهناً من حقه ذلك بعد قطعه كل هذه المسافات. ومن حكمة أمثالي أن لا يذهبوا. بل من واجبهم

الإنساني والأخلاقي أن لا يذهبوا. ثمة ما يسكننا من الماضي غير بيوتنا وقرانا وسهولنا وجبالنا . ثمة شهداؤنا الأجمل من هذا الثلج . ثمة حسابات وعتب وأخطاء وتحولات في كل ما نحمله من الفكر القومي الذي يؤول إلى سبات بعد كل تلك الهبات والفورات. ثمة ما يشغل غيرنا من حسابات ومقاولات. أما نحن ، فليس لدينا سوى مقالة أو مقالات. فهل بوسع أحد أن يسجع مثلي أو يهجع في مهجع 13 في بيرين لأنه أقدم بكل جرأة على دهس أصبع زوج صاحبة الطليقة؟ كما ورد في لائحة الدعوى في القضية رقم ...../ 1994؟ ومع ذلك.. لا جاءت نورما في هذا الليل ولا نامت غزة. ما ذاب رجل الثلج عند عتبة النبي سيلان ولا زار أهل حوميش لاوينهم. ولا اتصلت شركات الهواتف النقالة تقول: بمناسبة الظروف الصعبة تهديكم الشركة ديناراً واحداً وقد يكون فيه نجدتكم كي تبقون على قيد الحياة كزبائن مربحين ودائمين لشركات الاتصال الخلوي في الأردن السعيد بحلته البيضاء. ولا اتصل الأصدقاء أو رابطة الكتاب تتقصى حالة أعضائها في هذا الصقيع الذي جمد نحو مئتين من الأعضاء يضاف إلى من دخلوها أصلاً وهم لا حراك مجمدين.؟ وهذا الثلج الوضاء الطاهر في الخارج مثل قلبك أبيض. وهذا الثلج المتراكم الهش مثل تراكم العضوية في الاتحادين من الكتاب ما يلبث أن يتكسر بنفخة تنين ناشيء ستحول إسرائيل بكل قوتها دون أن يبلغ سن البلوغ وينمو كما تنمو الديون على أمريكا ويهجم بحكمة ليخرجها ملغمطة ببترول ونفط الجزيرة وملطخة بسواد نفط العراق. هكذا هي تأملاتك في بلاد الواق واق. حيث لا طيور

حولك ولا هديل حمام. حيث لا سكينة حولك والناس نيام. وحيث على غلبهم ينام العباد وعند الصبح يظهرون لأعمالهم وكأنهم لا ظلم لا جور ولا تناقض في وئام. هو الثلج إذن عطلهم عن أعمالهم ورحمة للأرض والطير والشجر. هو الثلج المقدس عطلهم عن الكلام. فالله عز وجل أرسل لهم كل هذا الثلج عبرة وفكرة ورسولاً. فهل تأمل أحدٌ منهم في هذا اللون ما يقوله الثلج أم ظل كسولاً في الدفء يحتمي وبما يمتلكه من غنائم النهار والانهيار . في البرد ينفق من الدفء على لصوصه الصغار الوثابون للسرقة واستبدال الشمس بمائدة للقمار. غداً إذا أشرقت الشمس يستيقظ المتجمد في سيارته على سيجارته فلا ينتبه أن ثمة بروميثيوس أشعلها له، بل على ما غنمه من ثلاثة أضعاف ثمن العلبة ويسير إلى حيث مجمع سرقاته ومن حوله من الشطار. أما أنتَ يا سيد الشعلة والنار، فقد كتب عليك أن تظل تكتب وتكتب في الحصار، تضاريساً لروحك، ومن روحك تستمد دفئاً أية نار. ومن روحك تستمد قوتها اللغة وتهدر من شعلة الحرف 700 بئر من الآبار. نفط الأرض يسمسره التجار الفجار وعليك إحكام إغلاقه منزلك عليك، وعليك إحكام صنع ما هو مقبل والثلوج تعلو والسماء انثيال تلو انثيال. فلتحكم إقفال غازات روحك وإياك قبل موعده أن تعلنه الإنفجار. فاصمد أيها الثلج المقاوم. واصمد من وراء حصارك أيها التنين المقاتل.

ضحكت الشجرة لما وصلها من هواجس رجل الثلج وتحولاته، كي يدفء نفسه، إلى تنين صغير. بالطبع أحسست بالامتنان له من تلك القبلة واليد الناحلة التي أزاحت عنها الثلوج. لكنها لم تتمالك نفسها من الضحك

جذلى من فكرة اللهب الذي سيخرج من فمه وربما أصابها بمقتل إن هو لم يحكم تصويب النار حيث جبل النار. لكنها أيضاً لم تخفِ تلك الرعشة التي أصابت جسدها وهي معزولة ووحيدة عن الغابة وهي أيضاً حبيسة ما ينتظرها من الانتظار. إنه قبلة الحياة وكفى، قالت لنفسها، وتذكرت ما به من الظمأ. وتذكرت ما تعده أيضاً في الصيف القادم من كلأ. إنها قبلة الحياة أياً كان شكل الوداع يا رفيق. ولم يكن على منأى من التواصل معها، فقد خرج لتوه لمشاهدة ما جمعته أغصانها من الندى، وكانت من نشوة الحب ترى في عينيه ونبضه اتساع المدى.

دخان .. متصاعدا

إهداء: إلى صنع الله ابراهيم (تلك الرائحة)

نعنع اقطفيه من فوق وحاذري الاقتراب من الجذور أما هي فلم تفهم تماما مقصده فقد أوصاها بذلك واطلق على نفسه الرصاص.

«نعم أطلق على نفسه الرصاص» قال الشهود وتمت مواراة جثمانه بالعلم.

وبعد سنوات نسيت هي الواقعة تماما. فقد كانت حكاية شربها للشاي بالنعناع مسألة طارئة وملتبسة ما بين الميرمية والشجيرة وما بين اللوز والتفاح.

اليوم زكمت أنفاسها برائحة المقهى المجاور الذي احترق فجأة ولم يبق فيه سوى أنقاض وحطام هش.. وفجأة لعلع الرصاص.

هو ذاك. انظري اليه عن بعدٍ واياك أن تقتربي منه قال لها ولم يوضح لكنها قبل ان يصاب هو الآخر بالجلطة عملت بعكس ما أوصاها به لترضي

فضول الأنثى اللحوح بالرجل.

ولم تزل حتى اليوم تتساءل عن لغز تلك الرائحة.

قال حارس المقبرة لرجال المباحث:

شممت رائحة نتنة غريبة فخرجت وتفقدت المقبرة. لم يكن هنالك شيء مفاجئ لي على غير العادة سوى هذا القبر الذي أجده اليوم فارغا. ولست أظن أنه حديث الحفر. واختفت الرائحة. تلك الرائحة التي شممت بسرعة لكنها باقية في هذا القبر الشاغر الذي ترون ومن حوله نثار الصخر وفتات الإسمنت. ولم يفهم حتى اليوم العلاقة بين تلك الرائحة وحضور رجال المباحث والتحقيق معه وبين الحريق في مقهى العاصمة.

قالت الناجية الوحيدة من حريق المقهى وكأنها آتية من كوكب آخر: أنا آخر من رآه يدخل المقهى وآخر من شاهده يخرج منه ذلك الرجل الغامض.

واسترسلت: شاهق ووسيم وجذاباً يشد أية أنثى وثمة رائحة عطرة تنبعث من ملامحه لكن... لكن عندما تقترب منه أكثر تختلط الروائح الزكية بنتانة ما يصعب تحديدها. رائحة جزء ميت فيه لم يوارها التراب تماما يا إلهي إذا صدق حدسي. إذ كنت أقرأ قصة قصيرة للطاهر وطار تتحدث عن عودة الشهداء. فهل يعقل ان الشهداء الذين نتغنى بهم ونقدسهم ونردد أسماءهم تصبح روائحهم نتنة عندما يموتون ولا يُخفي تلك الحقيقة عنا سوى التراب؟ إن ما شاهدته يشبه ذلك تماما. رجل نصفه الأعلى حي ونصفه السفلي ميت. رجل ترى المروج الخضراء في عينيه وربيع التاريخ

وبحر بلا نهاية ولا تشم من نصفه السفلي غير ما عجز منه على الحياة.

ميت وكريه ومغطى ببنطلون فاخر. تلك الرائحة.. يا إلهي كم هي كريهة ولكنها بعد دخوله وخروجه امتزجت برائحة حريق المزابل.. ولم يبق منها الآن غير الدخان المتصاعد. دخل وخرج. نعم.. لع.. لع..

نعم لست متأكدة أنه هو تحديدا الذي أطلق النيران وخرج. فقد تنوع الحضور من رجال أنيقين ومفاتيح سيارات ملقاة على المناضد إلى نساء فارهات لامعات البشرة عن كل حركة من أجسادهن تند الشهوة إلى محجبات متربصات عيونهن تلمع بما لا يستطيع الحجاب أن يحجبه إلى طاولات أشبه بطاولة الاجتماع السري إلى حواسيب حديثة وهواتف نقالة فاخرة وكل من يقترب منه لا يلبث أن ينفضَّ مبتعدا. منه أم من غيره تلك الرائحة لا أدري نعم أم لا لع أم نعم لست بجازمة في أمره ذلك الذي وقف فجأة وأخرج من معطفه الطويل رشاشا وشرع يفرغه في الرؤوس والكروش والمؤخرات والصدور والسيقان فاشتعل واختلطت النيران بالأصوات واللع بالنعم والجعير بالثغاء والزمجرة بالرجاء والعطر بالموت والحياة بالعدم. ربما هذا بالضبط ما حدث. فلم أعد أتذكر تماما سوى أنني هربت. وهربت لائذة بأقرب مقهى عار إلا من الشاي واليانسون والقهوة. طلبت كأسا من الشاي. نعم الشاي. ولم يسألني النادل المصري أية أسئلة إضافية فقد فهم أنني مذعورة وأنني أريد فقط أن أستريح وألتقط الأنفاس لعلني أرتب القصة من جديد. قدم لي الشاي بالنعناع نعم النعناع الهادىء البسيط. ولم أعد أشتم رائحة الموت. بل رائحة الصمت وطعم النعنع

البلدي. وأحاول حتى اليوم كلما تذكرت الواقعة أن أفيق من الحلم دون جدوى. دون جدوى قال لي: حاذري الاقتراب من الجذور.

وأطلق على نفسه الرصاص ومضى تاركا وراءه مقهى بحجم بلد. تاركا نصفه السفلي ميتا والبلدا وتاركا لا أحد. غير الدخان المتصاعد.

أفاق حارس المقبرة، كمن أيقظه الصمت المطبق فلم ير جنازات قادمة ولا طوابير سيارات ولا حفاري قبور. التفت من حوله إلى الافق فلم يبصر غير أدخنة سوداء تتصاعد وتشكل غيمة سوداء تزداد كثافة وتتضخم زاحفة في كل الاتجاهات حاجبة عن عينيه سماء رمادية اللون تسبقها رائحة البارود من كل الاتجاهات فأحس أن القبور ازدادت صلادة كأنما تعلن المقبرة رغم اتساعها عن عدم رغبتها باستقبال المزيد.

2013/02/14

عن أصدقاء ورفاق كنا نتحدث. عن أسباب غيابهم. عن قسوة التنظيمات الحزبية حينما تجمع على مهاجمة أحدهم بلا رحمة وبلا هوادة. لم أكن مشاركا بالحديث لأسباب تتعلق بشرودي وتأملاتي فاكتفيت بالاستماع والتذكر. مرت بخاطري أسراب من الطيور وفكرت أيضا بالفراشة التي ولدت شبه عمياء لا ترى ما يراه الآخرون في جناحيها المزدانين بالألوان والنقوش والزخارف الطبيعية ولا ترى أيضا ربما كم هي جميلة الفراشات الأخرى من حولها . تطورت أحاديث من حولي عن بعض المعتقلين من الرفاق الذين ما أن خرجوا من المعتقل حتى فُصلوا من أحزابهم بتهمة التعاون والتفريط والانهيار داخل السجون مما حرمهم من مواصلة النضال من أجل مبادئ الأحزاب التي اعتقلوا بسببها. لم يكن الحديث عادلا فقد كانت وجهات النظر سرعان ما تتقارب دون أن ينبري الدفاع لمواصلة مرافعاته حتى النهاية . ولكوني ليس لدي المعلومات الكافية عن بعض الأسماء التي تدور حولها الشبهات فقد كان من الصعب أن أغدو شريكا ذا بال بالنقاشات. لا ضد ولا مع بل من النظارة الذين لا يعرفون من القضية سوى لائحة

الاتهام وما تجود به جهود الدفاع أمام قاض وهمي هو في النهاية الحزب والكوادر المتقدمة به والمهام المناطة بكل مناضل وأسباب وحيثيات اعتقاله وخروجه المبكر أو المتوسط أو المتأخر من السجن. بدت الأحاديث مثل عصافير من لون واحد وكئيب الأمر الذي ذكرني بعصافير ملونة ميتة وعصافير غير ملونة تتكاثر وتطير بمنتهى الحرية دون أن يعترضها أحد أو تقع فريسة أفخاخ منصوبة أو طلقات نارية لصياد ماهر أو حتى لطلقة عرس طائشة. أما حكاية العصافير الملونة التي وجدت ميتة دون أن تصاب بطلقة أو حتى بحجر فقد نمت إلى علمي بعد كبير جهد بذلته بسؤال أهل الغور عن قصتها. فقد استغرب في البدء من سألتهم عن تلك الظاهرة إلى أن استدل أحدهم على إجابة فسَّرت لي أمرها تفسيراً أقرب إلى الحقيقة والمنطق. فقد تلقى أخوة اثنان علبا من الألوان الزيتية والدهانات كهدية من معارفهم الذين يعيشون في العاصمة ولم يتلقوا القماش المناسب لممارسة هوايتهم بالرسم والتلوين وكانوا أيضا يفتقدون الورق المقوى المناسب لسكب تلك الألوان عليها في ما قد يبتكرونه من تشكيلات لونية ولم تضق بهم مساحات الابتكار حين جمعوا ما بين هوايتهم القديمة بنصب الفخاخ للعصافير وما بين تلوينها بعد صيدها ومن ثم إطلاقها في الفضاء وكأنهم أردوا في البداية تلوين السماء بها من جديد وإشراكها في فرحتهم بالألوان لتتغير ألوانها الكئيبة دون أن يدركوا ما سيلحق بها من أذى نتيجة ممارستهم لتلك الهواية. فقد كان العصفور الذي يقع في الفخ ويتم تلوينه وإطلاقه ثانية ليلتحق بالجموع يعاني من مشكلة لا يعرف أسبابها عندما تنبذه بقية

العصافير التي لم يلون لها أحد جناحيها أو ريشها. كانت العصافير غير الملونة تنبذ بلا رحمة كل عصفور مختلف عنها وتستهجن وجوده بينها في حين أن العصفور الذي تم تلوينه لم يكن يعلم بذلك ولا يرى نفسه ملونا أو مختلفا عن بقية السرب وبالتالي لا يستطيع تفسير ابتعاد بقية العصافير عنه وهجرها له واستبعاده عن السرب مهما بذل من تغريد أو حاجة لأن يتم معاملته على قدم المساواة كما بقية العصافير فيضطر في النهاية للاستسلام لعزلته التي أكرهوه عليها فيسقط صريع الوحدة والعزلة والكمد ميتا . فهو لم يعد قادرا على العودة للفخ الذي غادره ولا هو قادر على تغيير لونه الذي وهب له دون أن يدري بنوايا ليس بالضرورة أن تكون شريرة. وعندما طالت فترة عدم مشاركتي بالحديث أحسست أن كل من هم في المجلس قد بدؤوا يتهامسون في أسباب عدم مشاركتي وربما تفاهموا بالإشارة والأعين على أن يتم تغيير موضوع الحديث خشية أن يكونوا مخترقين من قبلي أنا. فقد أحسوا أن صمتي تضامن غير معلن مع الخونة والعملاء المجمع على تخليهم عن الحزب واضطرار الحزب أن يتنكر ويتخلى لهم وعنهم. حينذاك وفجأة تداركت الموضوع وبدأت أتفحص نفسي وأجنحتي الملونة لعلي أعثر على من تجرأ ولونها لي دون إرادتي ورغما عني . وقبل أن أكتشف أنني بلا أجنحة وبلا ألوان غير اعتيادية كان الجميع قد انفضوا من حولي لأبقى وحيدا لا أعلم كيف ولماذا وكم مضى على سهوي وشرودي بالتفكير بمن هم مثلي عصافير ملونة .

عمان ـ 8 أيلول 2012

كثر هم الذين أشاروا الليلة بأيديهم لي بالتحية، هززت رأسي للبعض ولوحت بيدي لبعضهم الآخر، غير مستغرب تحياتهم المفاجئة قبل بداية المسرحية، في مسرح دائري، ليس لأنهم مشتاقين لي أو يفتقدونني بل: أولا لأنني تكاسلت بصحبة السيدة الجميلة أن أتقدم الصفوف الأمامية التي هجرها كبار الضيوف والسفراء والفنانين الكبار والنجوم فأقعيت حيث هي اختارت مكانا علويا يشرف على الجميع بحيث ترى أي سيدة جميلة وقع تأثيرها عندما تجلس بقرب رجل معروف أو مثير للاهتمام وفضول النساء وأسئلتهن الدائمة: منذ متى يعرفها؟ هل بينهما علاقة؟ أين صديقته القديمة؟ أين صديقها القديم؟ هل ستتطور العلاقة بينهما؟ شعرها جميل ولكن فستانها عادي غير مثير هذه الليلة ؟ قميصه جديد وأنيق ومزاجه الليلة متعكر.. كنت أعرف هذه الحقيقة وثانيا وثالثا من الأسباب، وربما هي أيضا بجانبي تعرفها وتحب أن نتبادل عن قرب الحديث وربما الهمس بحيث تلامس خصلات شعرها وجهي وبحيث تقترب أنفاسي من حلمة أذنها كي لا يسمعنا أحد ممن هم خلفنا أو ممن هم بجوارنا . كنت متأكدا أن

الأمر الذي يعنيهم ليس بالضرورة يعنيني، فكم من الصديقات جالست أو جاملت وربما أطريت وانتهينا إلى ما يشبه النسيان. تحياتهم لم تكن تماما لي وإلا لماذا لم أتلق أية تحية الليلة من أنثى؟ حتى بعض من أعرف منهن كن عابسات قليلا عندما جال بهن بصري دون أن نتبادل الابتسامات، لا شيئ جديدا في المسرحية، انتهى العرض ففوجئت بمن تجالسني عن قرب تنهض وتصفق، نعم تصفق بحرارة لعرض ساذج وغاية في السطحية لم يستدع نهوضي عن المقعد. هذا الفارق الأول بيننا والذي لو أدركه رتل المحيين لي لما وجه بعضهم التحية. لا جديد في حياتي ومن الصعب أن يكون هنالك جديد لكثرة ما افتقدت ممن جالستهن وكن يجلسن بقربي وكلانا يحس بالزهو والنشوة لتلك المجالسة التي تفصح عن حب أو مشروع حب أو علاقة يتوجها الحب المشهر على الناس لمجرد رغبة الطرفين في اشهاره ومتعة أن يتحدث عن أحدكما الناس أكثر مما يناقشون المسرحية. لا شيئ عاد يثير انتباهي، لا من أجالسهم أو أرد لهم التحية ولا الموضوع المسطح أمامي على الخشبة والذي يتحفتل حوله المخرج والممثلون . لكن ما اكتشفته الليلة فاق توقعاتي فتساءلت: عندما تكون المرأة ورقة خضراء من ورق الشجر أو غصنا تتدلى من صدره الفاكهة أو كزهر اللوز مزدانة بها الشجرة.. وعلى كثرة من عرفت من ورق الشجر والثمر والأجاص الشهي وتين الشفتين المحلى بالعسل.. لماذا الليلة تحديدا غدوت شجرا عاريا من الورق في خريف هيرمان هيسه؟ وهل ينتظر الشجر الموت بلا رهبة منه أو من مناشير وسواطير التجار والحطابين؟ وأي مشروع أعد به اليوم؟ غرفة

نوم فاخرة وأثاث مكتبي لحالمة ببيت وعرس وليلة من الشهوة العابرة؟ لم أدرك فداحة وجه الشبه بيني وبين هيرمان والشجرة الخريفية إلا عندما تذكرت كيف انهارت الزيتونة الرومية التي في ساحة الشجر أمام بيتنا في سيلة الظهر وكيف لم يعد حول منزلنا توت أو تين أو كرز أو حتى صبار أو مشمش. وخلال غيبوبتي نظرت حولي لمن كانت تجالسني بسعادة غامرة فإذا بها لم تعد بقربي ولا أنا انتبهت متى غادرت دوني منسلة لخارج المسرح .

عمان ـ 4 أيلول 2012

1- الكأس المكسور

ليس أسوأ من أن تشرح الحب فلكل حب ما هو غامض فيه لا تعرف كيف تفسره أو أن تعرف السحر فيه لأنك لو عرفت ذلك لبطل السحر والعذب الغامض فيه، لكننا أحيانا نجد أنفسنا دون قصد من أحدنا ألغينا تلك المسافة التي تبقي عليه . هذا ما خطر ببالي عندما أردت أن أكتب عن الكأس المكسور الذي لم أعد أعرف منذ متى كُسر، ليس تماما بل تم شرخه دون أن يفقد صفته ككأس، رغم أنه فقد وظيفته فلا تستطيع أن تملأه بساخن أو بارد، ولو أنني فعلت ذلك من قبل لتكسر إلى شظايا وتفتت تماما. لكنني لأمر لا أعرفه تماما حافظت عليه كما لم أحافظ على قلبي المصاب بأكثر من ضيق في الشرايين ولم أزل أدخن. فتلك التي كان بيننا اتفاق سري أن نختلي على مطلع الدرج فأحضنها ونصاب سويا بدوار لذيذ نكرره مرات ومرات لم تكسر قلبي تماما عندما كبرت وأصبحت في صف سادس وكذلك الأمر مع تلك التي ارتبطت في خيالي برائحة الخبز الساخن عندما كنت ألاحقها

كي تترك لنفسها فسحة من الوقت بانتظار دورها في فرن القرية فتغادر إلى بيت أقاربها غير البعيد فنلتقي ونتحدث عن الشوق اللاهب في شراييننا وتحمر وجنتاها من النشوة والخجل مما أقوله لها قبل أن يحمر رغيف الخبز من عجينها الطري، سافرت بغير عودة وغادرت قريتنا قبل أن أصبح في الأول إعدادي ـ صف سابع ـ لم تكسر قلبي تماما هي أيضا كما لم تترك به شروخا كثيرة إلا من سرعة اتخاذها لقرار الزواج وبالتالي قرار النسيان، أما عندما كبرنا قليلا فقد كان لزاما على شخص مجد مثلي أن ينأى قليلا عن من يحب فلا هي تندلق ولا أنا، كي لا يتكسر الكأس مما هو ساخن ولا مما هو موحش بارد كالثلج أيضا حيث تغدو المسافة في منتهى الدقة مابين اللمس والهمس والقبلة دونما الانفجار المباغت الأسرع من توقعاتنا بِسُكرٍ على حين غفلة لا نعرف نهاياته تماما وكذلك هو الكأس اليوم مثل قلبي تماما.

2- عينا ليفي

كما لو كان ميتا من ألف عام بدت جثته النحيلة المسجاة عندما تحلق حوله الصديق وشبه الصديق والرفيق ومشروع الرفيق والأخ الشقيق والأخ العتيق والسادة وبعض الرقيق. نادته من مسافة بعيدة وراءه حين ظل سائرا على الدرب: تيسير يا تيسير! سمعها وميز صوتها ولم يلتفت للوراء كأنه لم يسمع شيئا من ورائه سوى آخر المخبرات من أجل بضعة دنانير تعتاش يومها منها وتتجول من ركن إلى ركن باحثة عن خبر أو إفادة ممكنة. ظل في طريقه الحالك يسير حتى تذكر الإسم السري لإبنه الذي لم يسجله

في شهادة ميلاده أو في دفتر العائلة وبطاقات الأحوال: ليفي! وخاله يسير بقربه ومعا يمضيان فقال له: هل سمعت أحدا يا ليفي؟ فَسُرَّ قلبه للرضى في عينيه والنفي.. ظلا يسيران إلى أن علت من ورائهما الحرائق وارتفع الدخان قبل أن يغيبا في الأفق.

3- الجبل من الجهة الشرقية

قال العابر، وكوب الماء في يده، مستغربا: أليست هذه عين زكري ؟ ولم يجبه الفتى الواقف يتأمله على الشارع العام الذي يصل مدينة نابلس بمدينة جنين. ثم تساءل موضحا: هذا الماء قد غدى مالحا أليس كذلك؟ ولم ينتبه الاثنان لأغنية خافتة الصوت تقول من سفح الجبل وتتدلى من دالية العنب: يا جبل البعيد خلفك حبايبنا، ولا انتبه الاثنان أيضا، العابر والفتى، من الجهة الغربية، لجبل بنات يعقوب، لنبع الماء الذي أخذ يشح ويتغير طعمه كلما سمعت فيروز تغني في الشمال من جهة جبل الشيخ: يا جبل... منذ صيف حزيران 67 وجبل القبيبات يرقب ثلوج جبل الشيخ شمالا وجبال نابلس جنوبا ويرى زرقة المتوسط وبعد طول ثبات جلمود الصخر فيه شرع أخيرا يرسل مياه ينابيعه في كل اتجاه،كما لو كان يبكي...

2012-2011
شارع الملك طلال ـ وسط البلد

أحد عشر دبا ووردة

إلى رنيم

تبقى من الوقت نصف ساعة فقط قبل مغادرة الحافلة الضخمة موقفها في العبدلي ـ عمان متجهة للعقبة جنوبا. فاتجه بنظره نحو سوق الجمعة المزدحم بالبالة والخضار والناس وصياح الباعة. تذكر أنها كانت تحب سوق الجمعة مثل أي امرأة تحب التسوق بأسعار زهيدة . وهي منذ سنة ربما لم تزر هذا السوق الذي طالما زاراه سويا في يوم عطلتهما. وتذكر أيضا مشترياتها الأثيرة كالقبعات والأحذية والفساتين والبلايز والكنزات الشتوية التي لم تعد بحاجة لها في عملها وحرارة العقبة اللاهبة. وبسرعة راح ينتقي الهدايا لأطفال أصدقائه وربما لها هي أيضا بعد أن تعذر زواجهما لأسباب مادية ومن الطبيعي أيضا أن يتعذر الإنجاب في ظل عدم الإشهار لعلاقة صداقة يعلم بها القاصي والداني ولكنه يمنع فيها الانجاب دون عرس وحجز صالة وتزمير سيارات إلى آخر المعزوفة وحتى آخر زغروتة. على عجل أخذ يعاين وينتقي ويضع في الكيس الأسود وخلال ربع ساعة كان قد انتقى أفضل وأجمل ما على البسطة من ألعاب وهدايا دون أن يبادر لحساب سعرها الاجمالي تاركا الأمر

للبائع وحصافته مادام لم يكتف بقطعة واحدة فما على البائع سوى أن يقوم بخصم مناسب على السعر النهائي وهذا ما تم فعلا حيث حسب البائع مشترواته بنحو عشرين دينارا تم التفاوض السريع الحاسم عليها لتصبح خمسة عشر دينارا لا أكثر ولا أقل فاضطر البائع أن يرضخ بقليل من الربح في ظل الأزمة النقدية العالمية وعدم توفر السيولة في الخامس من مطلع شهر كانون الأول لعام 2008 .

كان كلما انتقى دمية أو لعبة يتذكر أنه نسي أن يسأل أصدقائه كم أصبح عمر أبنائهم وبناتهم فيجتهد من تلقاء نفسه في تقدير كل دمية مناسبة لهذا أو ذاك من أبناء أصدقائه الذين يصغرونه سنا وقد شارف على الخامسة والخمسين. كما أن البائع طمأنه بقوله أن اللعب القماشية يمكن غسلها لتعود إليها نضارتها الأولى وتدوم دون كسر أو تلف وكذلك دون تكلفة البطاريات أو الحاجة للكهرباء ما دامت لعبا ودمى من القماش الذي لا يؤذي الأطفال عند التلف والاستهلاك.

نقده الخمسة عشر دينارا ومضى نحو الحافلة دون حقائب بيديه ودون أية دلائل أو مؤشرات بأنه مغادر العاصمة عمان قبل عيد الأضحى بأيام ثلاثة، لا من حيث هندامه ولا من حيث مشترياته أو استعداداته للسفر. أربعة أكياس مكتظة باللعب وسوداء بيده اليمنى ويجول بها في مكتب السفريات باحثا عن كيس أكبر يحتويها جميعا دون أن يفلح إلى أن جاد عليه موظف في المكتب يعرفه مهتما بالمهرجانات المسرحية فجلب له كيسا جديدا من الأكياس المخصصة للقمامة.

ألقى بالأكياس السوداء الأربعة في الكيس الضخم فاحتواها ثم قام بربط الكيس الأم عليها ليضعه مع حقائب السفر لركاب الحافلة المغادرين.

***

كانت قد أخبرته مقدما أن مكتب السياحة الذي تعمل لديه لا يمكن أن يسمح لها بيوم ولو واحد إجازة كي تستقبله وأن عملها كدليل سياحي باللغتين الفرنسية والإنجليزية يستمر من الثامنة صباحا حتى الثامنة مساء. كما سألته إن كان بحاجة لتحويل أي مبلغ من المال فنفى ولم يخبرها أن وزارة التربية أوقفت تحويل راتبه للبنك منذ أسبوعين معللا أن الروتين المتبع لمن يعودون لعملهم بعد انقطاع يقتضي كل ذلك. وكذلك فعل صديقه الذي قام بالحجز له خاصة وأن استلامه لراتبه يدويا بشيك محول على وزارة المالية والبنك المركزي يحتاج لأربعة أيام عمل كي يصار إلى صرفه بأسلوب المقاصة كما أخبروه يوم الأربعاء.

لكن موظف البنك الذي شعر بضرر أن يدخل معلم في تسعة أيام إجازة من ضمنها إجازة عيد الأضحى دون مليم واحد في جيبه عاجل إلى كتابة كلمة «مستعجل جدا» على شيك راتبه كي يستلمه من الصراف الآلي مساء الخميس وهذا ما حدث فعلا حيث قام فور استلامه بتسديد أجرة البيت المستحقة للمالك وسدد لهذا وذاك ما كان قد استدانه منهم منذ ثلاثة أسابيع قبل أن يحزم أمره نحو العقبة بتشجيع من صديق كركي يقيم ويعمل في العقبة في جريدة «القلعة» .

أما الصديق الثاني الذي كلما اشترى هاتفا نقالا كلما تمت سرقته وتغيير الرقم فقد انقطعت أخباره منذ نحو سنة، بعد أن تزوج وأنجب، وربما انكفأ على حياته العائلية شأنه شأن كل العزاب عندما يتزوجون في ظل ارتفاع الأسعار الجنوني وشح المداخيل وتذمر الأنسباء وأحيانا الزوجات. الصديق الكركي وعد بالبحث عن الصديق المشترك ليخبره أن صديقهم المقيم في عمان سوف يأتي في زيارة لمدة يومين للعقبة. بل أنه هو من أخبر الصديقة السياحية بأنه قادم ولكن للزيارة هذه المرة وليس لخطوبتها ثانية وثالثة من نفسها أو من أهلها. كما أن الصديق الكركي قام بتسديد أجرة مبيت اليومين مقدما لصاحب الفندق خشية إلغاء الأخير للحجز أو إلغاء الزائر للزيارة.

***

صاحب الفندق من جانبه شعر بأهمية الزائر السياسية والسياحية فاستجمع ما بحوزته من الشكوى ليبثها إليه. فهو لا يعلم أن القادم مغضوب عليه من الحكومة ومن أحزاب المعارضة أيضا لأنه مستقل ويأبى أن يلتزم بأي من الأحزاب كما يرفض أن يكون مواليا لأي من الحكومات. وبالمثل فهو مطلق لأنه يرفض أن تضمه إحداهن لبيت الطاعة في هذا السن الطاعن باليأس والعزلة والوعي. لذلك أصيب الكركي الداعي بما يشبه الصدمة عندما شاهد ضيفه يخرج كيسا أسود اللون من بين حقائب وحوائج القادمين من عمان. وبالمثل صاحب الفندق الذي أصيب هو الآخر بالخذلان من مشهد الكيس الأسود الداخل إلى فندقه وهو الذي إعتاد أن يخرج مثل هذه

الأكياس من فندقه ليلا كي لا يشاهدها النزلاء فيتأففوا من منظرها أو من رائحة القمامة فيها.

أما الزائر ـ الكاتب والناقد والصحفي والمعلم والمترجم والمطلق والأعزب والأشيب فلم يبال بما خامر مستقبليه ربما لأنه يعلم أن محتويات الكيس ليس سوى هدايا عندما يصار إلى تغليفها وتقديمها كما تقدم أفخم الهدايا وأشدها إثارة ودهشة ستحوز رضا آباء وأمهات الأطفال الذين يحبهم كما لا يحب أحدا من الكبار. بل كان يعلم أن الدببة التي لم يقم بتعدادها قادرة على إدهاش من لم تبعث العقبة برمتها الدهشة فيه، تماما مثلما راهن ويراهن دائما على قوة الدب الروسي رمز القوة والطيبة. وهكذا دخل الزائر إلى غرفته وبصحبته الكيس الأسود الغامض المحتوى كي يستريح قليلا قبل الطواف بالعقبة.

***

لم يتذكر أول زيارة له للثغر الباسم مطلع عام 1994 قبل 14 سنة، فقد ضاق بالجريدة وعمان وبالبر والجو واتجه بسيارته اللادا الحمراء إلى البحر عبر السلط والكرك مارا ببحر ميت ومتيمنا بمد أصابع يمناه بالملح الطبيعي لماء كثيف الملوحة في الليل ليتجه في ذات الليلة للعقبة عبر الشارع الطويل المحاذي للبحر الميت بجثته المديدة من الجهة الشرقية والشريط الموازي من الجهة الغربية لا يغادر ذهنه آنذاك. لا لم يتذكر أن رحلته تلك أسفرت عن قراءة مقالة لشمعون بيريز نشرتها صحيفة الجوردان تايمز في عدد اليوم الذي اشترى الجريدة فيه غير قادر على قراءتها في فندق القدس القريب من

جريدة الأسواق آنذاك قبل أن تغلق الجريدة وتصبح في خبر كان. بعد عودته من العقبة، وما أدراك ما العقبة عام 1994 لم تمض أسابيع حتى وجد نفسه في معتقل بيرين بتهمة الشروع بالقتل مكررا ثلاث مرات. وعام 2000 كانت زيارته الثانية للعقبة بسيارة سياحية بعد أن بيعت اللادا الحمراء في مزادات دائرة الإجراء في الزرقاء لتذهب نفقة مقدمة على أطفاله وهو بلا عمل منذ خروجه غير مسؤول عما نسبته امرأة له من الشروع المتكرر بقتلها عام 1994 وكانت برفقته خطيبته التي ذهب إلى مقر عملها في جريدة ستار الأسبوعية التي تصدر باللغتين الإنجليزية والفرنسية عن دار الدستور للطباعة والنشر. فقد تعاطف مع خريجة جامعة اليرموك قسم اللغات الأجنبية التي بالكاد تقبض عشرين دينارا شهريا من الجريدة لقاء كل موضوع ينشر لها إذا تم نشره والتي كانت تقيم لدى إحدى المطلقات الوارثات عن آبائهن قسطا لا بأس به من الثروات. وتلك الخريجة المتطلعة لعالم الصحافة ببراءة لم تكن تدرك تماما حجم التمييز الممارس ضدها وإن كانت تلمسه وتحسه لأنها إبنة قرية قباطية بالضفة الفلسطينية وجميع أهلها في السعودية. قال لرئيس تحريرها الذي فوجئ بزيارته أنها أي إبنة قباطية لن تعود للعمل غير المجدي بعد تلك الزيارة وأنها منذ تلك اللحظة خطيبته وسوف يذهب بها للعقبة لزيارة أسرة صديقة كي يشهر علاقته بها قريبا من حدود الأردن مع السعودية بمكالمة هاتفية مع والدها المغترب هناك منذ سنوات طويلة. كانت قد تخرجت من الجامعة ولم توظف في مجال اختصاصها سوى على التعليم الإضافي رغم أنه مرت سبع سنوات على تخرجها آنذاك عند نهاية

الألفية الثانية.لا لم يتذكر تلك الزيارة وهو يشن الزيارة الرابعة أو الخامسة للعقبة ردا على وفاء شاب كركي أعجبته مواقف أبي إلزا أو أبي غسان الثقافية والسياسية وظل وفيا لهذا الإعجاب في أقسى لحظات حياة أبي إلزا سوداوية وعزلة وحزنا. وعلاوة على الحزن والوحدة وسوء الطالع فقد كان الزائر للعقبة اليوم ساخرا ومصدرا للضحك والبهجة والنكتة في كل المواسم الثقافية التي تهل على الأردن المفتون بحبات قليلة من الديمقراطية المقننة الحذرة. فالدببة التي إشتراها من بالة سوق الجمعة قبل صلاة الظهر ليحملها معه إلى العقبة تشي دون شك بأنه غريب الأطوار. فكل من يغادر عمان يكون قد أعد عدته لكون العقبة منطقة حرة يستطيع أي زائر لها أن يسترد تكلفة رحلته تلك من فارق السعر لمشترياته من العقبة التي يزيد ثمنها في عمان نحو عشرة بالمئة، كأن يشتري أحدهم كروزين سجائر من العقبة فيكون سدد بفارق سعرها ثمن تذكرة الذهاب فإذا اشترى كيلوغراما من المكسرات والموز مثلا يكون بذلك سدد ثمن تذكرة الإياب، وإذا ما اشترى أي جهاز كهربائي أو حراما للشتاء المقبل أصبحت إقامته والسفرة كلها للعقبة ببلاش هذا إن لم يكسب دنانير إضافية. أما أن يشتري الذاهب للعقبة من بالة عمان أحد عشر دبا قماشيا بمبلغ خمسة عشر دينارا ثم لا يجد من قام بحملها لهم فيضطر للعودة بها معه إلى عمان وبالتالي جمركتها بأغلى مما اشتراها به فتلك لا تخطر ببال عاقل إلا هو. فقد جرب أن يشتري لوليد شقيقه الأصغر دبا من الزرقاء فدفع به خمسة دنانير، وبالتالي فإن دبا مماثلا قد يشتريه من العقبة سيكلفه أربعة دنانير إن لم توجد البالة في العقبة.

لذلك لم يكن بوسعه إلا أن يغامر بشراء أكبر عدد من الدببة تمهيدا لإهدائها للصغار وللكبار في العقبة. وماذا بوسعه أن يهدي غير ذلك ترحما على الاتحاد السوفياتي والدب الروسي الطيب والقوي؟ كما أن أعياد الميلاد مقبلة عند نهاية الشهر ولسوف يصبح ثمن الهدية فيها مضاعفا فالدب الصغير لن يشتريه أحد بأقل من عشرة دنانير. ولذلك كان المغادر لعمان قلقا على ثروته التي أودعها الكيس الأسود الذي أودعه مكان شحن الحقائب في الحافلة الضخمة الفخمة التي يستقلها الآن قاطعة الفيافي الصحراوية ومارة بالجفر على يسارها وهي تنهب الصحراء نحو الثغر المطل على إيلات.

***

أغلق باب غرفة الفندق على نفسه وراح يخرج الدببة واحدا تلو الآخر ليطمئن عليهم جميعا من وعكاء السفر لأربع ساعات ونيف متصلة، وبخاصة على الصغار منها فكبيرو الحجم لم يكن ليقلق عليهم وإنما على الرضع منها والقليلة الحجم الواعدة ببراءة أكبر وبزمن مقبل وافر وبحار لها آفاق رحبة لا تنتهي مثل بحر العقبة بجبال سوداء قاحلة في شاطئ آخر محرم في منطقة أخرى محتلة ومن ورائها غزة الغارقة بالظلام والحصار والجوع والمذلة. وبسرعة الملتزم والمحترم لوقت وضيافة الصديق الكركي أعادها للكيس الأم وأغلق الغرفة نازلا إلى حيث استضافه السيد أبو رنيم في مطعم فاخر بمقاييس العقبة الشعبية بعيدا عن فنادق الخمسة نجوم بالطبع والتي كانت وستظل نائية على أمثالهما.

قال أبو رنيم: لقد أخبرت الآنسة فطيمة بزيارتك وموعد وصولك منذ ليلة أمس. ولم يعلق الخطيب السابق للآنسة فطيمة. ففهم أبو رنيم أن الأمر لم يعد يعني ضيفه وأن العلاقة بها غدت فاترة بعد أن ارتفع دخلها عشرات أضعاف دخلها كمعلمة لغة فرنسية اختارت أن ترافق السواح الأجانب كدليل سياحي على أن ترافق الطالبات إلى مستقبل مجهول فقامت بتقديم طلب لمديرية عمان الأولى للسماح لها بإجازة بدون مرتب من التعليم الذي ضاقت به ذرعا. وخلال سنة استطاعت من عملها في العقبة أن تشتري شقة وتسدد من ثمنها واحدا وعشرين ألفا من الدنانير بحيث لم يتبق عليها من ثمنها غير سبع عشرة ألفا وتصبح بالتالي مالكة لشقة خلال سنتين عمل متصلتين دون إجازات أو وجع رأس يأتيها من خطيبها وزوج المستقبل وشؤونه الثقافية والسياسية. أدرك أبو رنيم من فسحة الصمت التي سادت بينهما أن العلاقة بينهما شبه منتهية فلا الآنسة فطيمة أبدت اهتماما بصديقها القادم من عمان كأن تطلب يوم إجازة في يوم الجمعة ولا هي طلبت اسم الفندق الذي سينزل فيه ولا أبو غسان هو الآخر أبدى أي تساؤل عن الفندق الذي تقيم الآنسة فيه منذ سنة ريثما تنتهي عملية التشطيب لشقتها. لكن أبا غسان كان فرحا أيما فرح بأبنائه الأحد عشر متفاوتي الأحجام والأعمار. راح يتذكرهم واحدا واحدا وهو يلتهم طعام الغداء بصحبة الصديق. فقد كان مجرد شرائه لأحد عشر دبا دفعة واحدة في يوم استراحة جاء استثنائيا كون الراتب الموقوف تم الإفراج عنه، في الوقت الضائع مساء أمس الخميس، بحد ذاته فرحة عيد لا توصف. وهو يفكر الآن بأن يعلن

المفاجأة بعد أن يغلف كل واحد أو اثنين منها في علبة فاخرة يشتريها من العقبة ليصار إلى تقديم هداياه لرنيم وزيد وبيسان وما يستجد من أطفال وولادات في العقبة أو فندق الشاطئ إن حدثت ولادات في اليومين الأخيرين قبل أن تقترب سكاكين الأضحى من أعناق الخراف.

***

عند الثامنة مساء استأذن السيد أبو رنيم من ضيفه ليتجه إلى عمله المسائي حسب الإتفاق بينهما على الهاتف ما بين العقبة وعمان، حيث قال أبو إلزا أن وقت المساء بعد التاسعة سوف يكون مناسبا للآنسة أن تزوره أو يزورها بينما يكون النهار بعد الحادية عشرة صباحا مناسبا للقيا الصديق المستضيف. لكن الصديق الكركي لم يغادر تماما حتى اطمأن على أن الضيف قد اتصل بصديقته ليشعرها بتأكيد وصوله للعقبة حتى وإن لم تبادر هي بالاتصال لفوارق طبقية ناشئة بينهما خلال سنة من الفراق المثمر.

قالت على الهاتف أنها وصلت للتو من عملها في البتراء وتريد أن تستريح وتأخذ «شاور» فقال لها «براحتك» فأنا أحتسي القهوة على اللسان الخشبي الممتد داخل البحر. وحالما أغلق هاتفه النقال سمع نعيق صديقه الغراب الذي رغم الليل ميز لونه بأنه الغراب الأسود الذي يحب. فالنورس كان قد ودعه بكثافة منذ آخر سفرة له مغادرا غوكتشدرة عبر البحر عائدا مع إلزاه الطفلة وأمها إلى مكان إقامتهما في الصيف في اسطنبول الغربية. يومذاك بكت أم إلزا لمشهد النوارس البيضاء التي كانت بالعشرات تلاحق المركب

المغادر إلى اسطنبول شاعرة أنها ستكون آخر رحلة لهم لتركيا عام 1986 وقد صدق إحساسها وحدسها الحزين الذي انتهى عام 1996 بالفراق الدائم والطلاق البائن والسجن لمدة سنتين على ذمة الشروع بقتلها قبل الطلاق الذي طالبت به من الغراب الأسود.

قال أبو إلزا محدثا نفسه والغراب يحلق من حوله: تأخرت عليك كثيرا وتأخرت عليّ أنت كذلك أيها الصديق الذي ينبذه الناس ولا يفرح أحد لمرآه. أما الغراب الأسود فقد ظل ينعق معبرا هو الآخر عن شعوره بوصول رفيق الدرب.

كانت إيلات متلئلئة متلألئة ممتلئلأة بالضوء الأصفر كما لو كانت مزدانة بعقد كبير من الذهب الخالص الذي يبرق في العينين ويرسل ظلاله المضيئة نحو ماء راكد ساكن ليس بماء بحر وإن أسموه كذلك. إنه شاطئ وليس غير. إنه ماء المساء وليس ماء «الشاور» الدافئ. إنه الظلام على شكل ماء. الظلام غير المفهوم من سوء التفاهم. الظلام الذي لا يحيلك بأي حال إلى ظلام العهد القديم. الظلام الذي لم تقرأ عنه في سفر التكوين. الظلام الذي يحمل أسماك الجانب الأردني إلى أعلاف الجانب الإسرائيلي حاملا معه بضع دولارات صرفها السياح في فنادق الخمسة نجوم التي شيدها عمال البناء بتعب الغربة عن الأهل سواء كانوا في مصر أو كانوا في فلسطين.إنه الظلام البارد الذي تستحيل السباحة فيه، الحركة فيه، الموسيقى فيه، غير موسيقى الصمت الميت. إن بحر العقبة أيضا بحر ميت لا علائم حياة منه أو فيه. أيها الغراب الذي ترى ما أرى دعني أسلم عليك، فهل تقبل بالمصافحة مثل

شيخ الأزهر مثلا رغم أننا من ديانة واحدة ولون واحد؟ ويا من كنت في عصمة ما لدي من أجور السيارات السياحية من إربد حتى العقبة كم يطول الشاور بالله عليك؟ خمس سنوات من التشرد مثلا أم نقع أقدامنا بالماء البارد كأقصى طموح راودنا صيف عام الألفين؟ يومذاك أخذت الطفلة بيسان إلى المصور كي أسيطر على الفرح فأجمد الزمن في ورقة هي الصورة لها لكنها لحظة التصوير بكت فأدركت سوء طالعي وأعدتها للأسرة الناشئة حديثا المستضيفة لي ولصديقتي التي أصبحت خطيبتي ولم تصبح زوجة بعد. بكت بيسان كما لم تبك طفلة بصحبتي. وفرحت الآنسة كما لم تفرح إبنتي. ومضينا في الزمن المخاتل إلى الفيضان الذي أتى على الوثائق والأرشيف والصور والأثاث والإنترنت المقاوم والهاتف والفراش والملابس عند نهاية الألفين وواحد في مثل هذه الأيام. وذابت صورة بيسان التي أهدت محمود درويش في ما بعد باقة ورد قبل الرحيل. لم تعد اللحظة موجودة سواء بفرحتها أو بدموعها التي تأكدت. وكذلك السنين الثمانية تنتهي الليلة بشاور خفيف الوقع على عائد سخي لبذل طري بالتحدث عن المعالم السياحية للأردن الشقيق من البتراء إلى العقبة وربما إلى إيلات سرا أو جهرا لا فرق. وفي كل مرة تتساءل ما الذي أتى بك إلى العقبة وكل حياتك عقبات وراء عقبات فهل نقصتني عقبة لأكملها في حضوري؟ الصديق إياد لا خبر عنه ولا أحد يعلم على أي الأرقام يرد. وشقيقك الذي تسمع فقط من الناس أنه في العقبة يعمل لا أحد يعلم عنه شيئا هنا وحتى لو سألت الغراب صديقك الأزلي لن يخبرك عنه بنعقة أو خفق جناح. قال لنفسه والملل يسيطر على المشهد وربما

كذلك على إيلات: كم أحتاج أي من الدببة الآن، أصدقائي وأحبتي الذين سوف تتم التضحية بهم كهدايا دون رحمة. وتمنى لو اصطحب إحداها معه باتجاه هذا الليل الليل. لكانت عيناه قد أبرقتا بالدمع لفرط ما في المشهد من قسوة الذبح الأضحى. وكما توقع جاءت الآنسة بفتور. ألقت التحية كما تلقيها سيدة أجنبية جاءت لمراسم دفن ماضيها الشقي إلى الأبد في شقة فوق جبال الألب. جلست وطلبت كأسا من اليانسون. سون سون وشربت وغادرت لأن الوقت تأخر وفي الصباح عليها أن ترافق فوجا جديدا من السواح. وكما ينتظر شقيقه سائحة أجنبية تنقذه من البطالة في الأردن العربي الشقيق فتفتتن برجولته أو ذكورته وتأخذه معها إلى فرنسا أو بريطانيا فهي أي صاحبة الشاور سوف تنتظر بالمقابل سائحا شابا غير هؤلاء العجزة والكبار في السن ليفتتن بها هي أيضا فينقذها من التعليم ووزارة التربية وراتبها القليل الذي لا يسدد قرضا بنكيا لسفرتها لباريس أو لشراء سيارة متواضعة. الكل ينتظر الأجنبي صديقا زوجا عشيقا أو عشيقة محتلا أم غازيا زائرا سائحا أم سائحة فاتنة الفخدين. إنه أجنبي أو أنها أجنبية وكفى إلاك أيها الغراب العنيد الذي رغم امتلاكه لأجنحة تعلو فوق نقطة الجمارك الأردنية التي تفصل العقبة عن باقي الأردن وتعلو فوق السفن البارخة والسفن الرائحة وسارية العلم الباذخة لعلم لا تشعر مع ركود الريح بأنه موجود، لا يفكر بمغادرة الوطن. أيها الغراب لماذا لا تسافر فأنت الوحيد بيننا الذي يمتلك حريته دون أي احتجاج من إسرائيل على خرقه للحصار في غزة. أو دعني أقترح عليك الزواج بسوسنة البحر البيضاء إن لم تصب

بالتفرقة العنصرية. إرحل أيها الغراب الأسود كما رحلت فطوم للدوام وأمنيات المستقبل خارج هذه الحدود حيث لا حدود في الجو سوى الأجواء الاقليمية لكل بلد وأنت مختلف عليك ومن كل بلد تخرج لأي بلد دون وثائق أو جوازات سفر . ولن أثقل عليك فأستغل صداقتنا أيها الغراب فأقول خذني معك لترفض. فقط أردت إنقاذك من هذا العواء الداخلي الذي ينبح دون أن يسمعه أحد في الجانبين، الأردني والاسرائيلي، أو الأردني والسعودي أو السعودي والمصري، حيث أنت تحلق عند ملتقى الحدود مع الدول ولا دولة لك مثلي أيها الغراب سوى هذا الحصار الذي يلفنا مثل كيس أسود من الليل لا أحد يمتلك حق فتحه أو تمزيقه غير الدببة التي إن طال حبسها في الغرفة ستخرج بقوة الجوع تبحث عن طعام أولادها.

***

في اليوم التالي قال صاحب الفندق للشاب الكركي الذي جاء للفندق يسأل عن الضيف:

لقد ترك لك هدية كما ترك في الفندق الآخر هدية أيضا وغادر بعد أن أسلمنا غرفته المحجوزة دون أن نعلم إلى أين.

وعندما عادت الآنسة من عملها في الثامنة والنصف مساء قال لها أيضا صاحب الفندق الذي تقيم فيه أن شخصا طويل القامة أشعث الشعر يلبس نظارة قديمة الموديل جدا ويرتدي جاكيتة سوداء قد مر وترك لها رسالة وكيسا من النايلون بهيج اللون فيه عددا من الدببة.

ويقال، على ذمة الراوي، أنها فتحت الكيس أولا قبل أن تقرأ الرسالة فراحت تضحك وتضحك من المفاجأة التي لم تخطر على بالها، فهي تحب الدببة وأول هدية لها من خطيبها السابق كانت دبا أبيض اللون فكيف اهتدى أخيرا إلى الدببة بنية اللون مختلفة الأحجام، وبينما ـ صدقاً أم كذباً ـ هي فرحة أمام مكتب الاستقبال في الفندق شرعت تقرأ الرسالة التي استلمتها وعيناها تدريجيا تمتلئان بالدموع:

الأستاذة والصديقة

مررت ولم أجدك في الثامنة والربع مساء، كان بودي أن أرى وقع المفاجأة على ملامحك، قصدت فقط إضحاكك من أولادي منك، أرجو العناية بأصغرهم الذي لا يريد أن يفتح عينيه رغم محاولتي قبل وضعه في الكيس أن أجعلك تشاهدين عينيه الجميلتين. لقد أحببتهم بكل صدق وبكل الحب أهديك ثلاثة منهم حرصت أن تنال ألوانهم رضاك. سأحاول في العيد أن أجد وردة مناسبة تليق فإن لم أعثر أو نسيت أرجو المعذرة، فقد تأخرت كثيرا. .

وفي اليوم التالي لاحظ صاحب الفندق أن الحياة تسير بشكلها الاعتيادي. فرغم أنه لم يشاهد الآنسة تضحك لهدية وصلتها منذ أكثر من سنة بمثل ضحكاتها ليلة الأمس، ورغم أنه أيضا لم يشهدها تبكي بعد ذلك بمثل ما بكت عيناها ليلة أمس، إلا أنه لاحظ بشدة كيف خرجت إلى عملها اليوم مبكرة وكأن الأمس لم يكن.

أما صاحب الفندق الآخر والمضيف فقد لاحظ أن ظاهرة الدببة بدأت تنتشر في العقبة ومن إنتاج صيني وبأحجام كبيرة ودون أكياس سوداء، لكن أحدا لم ينتبه لاختفاء الغراب الأسود، أو ينتبه لسقاية الوردة، أية وردة من دم الأضاحي في العيد.

تاريخ النشر
2009 -04 -03

ملاحظة: الأوراق الأربع عثر على صورة منها في ملف نزيل المركز الوطني للصحة النفسية رقم ...../ 1994

1- بيت برناردا إلزا

في البدء، كان يغمرني من كل الاتجاهات، الحزن الذي اعتدت أن أغوص فيه أو أقفز إليه من رفاسات واقع طبقي موغل في القبح والبشاعة. فيه يكون ثمة ما يقيك وأنت تغوص وتغوص لولا قلة الأكسجين وعدم تخلق الخياشيم السمكية التي تجعلك في قاع المحيطات آمنا لا غبار عليك. في البدء كان الحزن قبل الموسيقى وقبل النواح المتصل. لكنني وهنت من ناحية وكبرت معه الرفيق. أصبح لدي دربة وخبرة كيف لو ارتفعت أسعاره أجده متوفرا في المرتبانات بعد أن أكون عجنته وقسمته على الأسابيع والشهور والسنين. وهل أستطيع اليوم أن أعيش دونه الحزن المعتق الجميل البهي الطالع تواً من الثواني والصمت الربيعي والعيون؟ الحزن في بيتي لا يفسد

كما بقية الأشياء في المطبخ والثلاجة، الهجران لا ينال منه فهو معد وفق خبراتي يقيه الملح من كل سوء ومن الرطوبة أحاذر عليه أن يتلف فأحكم إغلاق كل مرتبان على حدى كي لا يختلط الحزن الوطني بالأيدولوجي بالإجتماعي بالمبّهر بالسخرية السوداء بالحزن الضاحك فاتح اللون بذياك البنفسجي أو الكستنائي.كل الأنواع لدي منه كالمعلب والمجفف والمعجون بكميات وافرة أو ذلك من نوع يلزم في الأفراح والمناسبات الاحتفالية والذي يبدو للناظر إليه أشبه بالحلوى المجففة أو الثمر الفاكهي المربى بسكر الأيام دون تحديد جهة الصنع والمنشأ. لا لم أفكر بفتح قبو بصل له أو المتاجرة به فكثرة العرض تجعله رخيصا لا إقبال عليه ولذلك لم أعرض أية كمية منه للبيع. لكن ما أثار حفيظتي أن الصديق السويسري ماركوز وصديقته البارعة..... أتقنوا صنع شبيه له بما لدي من المخفي منه في خريفية هاملت.. يا هاملت العربي كم مرة قتلت أخيك الفلسطيني عن طريق الخطأ؟ يا هاملت الفلسطيني اليهودي، أخوك، فلماذا تحتكر السؤال وحدك وأوفيليا تغني تارة أو تبكي أبيها في معمان دورة البوليس في شوارع الزرقاء عام 1994؟ أوفيليا،، يا إلزا إنهضي من حزنك الآن لم يمت أبيك في الفحيص تماما ولا كانت محافظة الزرقاء لأمك وستالين ختاما. يا ابنتي مالذي يحزنك الآن في قبضة أخيك راضع أحقاد أمك وشهوة إمرأة الجيران؟ لا لم تنقض الفأس الصغيرة على جمجمة أبيك في المكسيك بعد لأنه ويا لبؤس غباء أمك يعيش دون جواز سفر. لقد أصبحت الفأس الصغيرة طي الكتمان والتاريخ كما الملح تجمد من الرطوبة في مرتبان مكسور وملئ بشظايا النسيان. أفيقي يا ابنتي من هذه الأدوية التي تبتاعها لك المسجلة

لدى الدائرة أنها تكون أمك وتكون أبيك وتكون مهدك وتكون للحدك غطاء من المرض المصدر من حولي للزرقاء الجديدة؟ هل تناولت الدواء من يد قاتلة بعد؟ إن لم تفعلي ذلك فاكرهيني كما يكرهون اليهودي كي تعيشي بفضل قليل من النسيان. أما غسان فاغفري له أن لم يستيقظ بعد على أي كأس ليشربه عوضا عن أمه أو عن أبيه. ها هاملت ستجعلكما في الضحك سواسية، وفي البيت سواسية وفي اشتباك الملامح أيضا بينك وبين ديمة لم تمطر بعد سوى اللؤم الوراثي وإدعاء تحرير غزة من العابر والمعابر حتى البحر. لا تمضي للبحر وحدك يا ابنتي فالبحر غادر. ولا تأتي فارعة الكبرياء إلى الأرز فلبنان ضاقت بها المقابر. لا تشربي في المرة القادمة من هذا الماء ولا تطمئني تماما لتشابه الأسماء. وامهليني يا ابنتي كي لا يتجرع تروتسكي مرارة ابنته وابنه الأكبر والأصغر دونما ذنب اقترفه سوى أنه فكر وتدبر. هذا زمان المدبرين يا ابنتي إلى مخافر البوليس في الدول الشقيقة والصديقة ونكران الحقيقة. فامهليني يا إلزا تروليبه فبك على شفتي بعض قصيدة لم يكتبها أراغون بعد ولا خطرت ببال الرفيقة. ها ماركوز جاء بالدواء وأخلد في إطرائي للصمت والمعنى. ثمة بقايا فضول لديه عن بيت برناردا ألبا برناردا إلزا برناردا لوركا وعرس الدم. لا تصدقي أن أعراسنا أبقت بعد اليوم قطرة واحدة من دم. من مرتبان الرصيع في المطبخ الوضيع حتى آخر قطرة من ندم ومن الكويت حتى العدم.وأخيرا اغفري لي أن من نوع حزنك لم أستطع له شبيهاً في القِدَم.

عمان 26 /4/ 2008

2- في الصعود إلى ضريح تروتسكي

في الصعود إلى ضريح تروتسكي لم يكن بصحبتي غير سيزيف، وهو أيضا لن يراهن عليه، فقد خرجت الآلهة من توابيتها القديمة كي تنتقم منه، وسوف تكون بانتظاره عند أول منعطف، عندها لن يبق في الطريق إليه غيري.

والطريق طويل وقد وهن العظم مني.لكن لا وراء، إلى الأمام وليس غير الأمام أمامي. كنا أنا وسيزيف قد شاهدنا في طريقنا ستالين جالسا مثل أرملة بانتظار الوعود. وشاهدناه أيضا يتخفى من رفاق مغدورين. سيزيف أراد أن يتهور ويلقي عليه بصخرته الضخمة. قلت له..لا ..لا تفعلها يا سيزيف. أولا تعلم أنه حليف الآلهة الجدد. قلت له: أولا تعلم أننا في الطريق سنحاول ما أمكننا تعزية بروميثيوس وأن شعلته هي التي تضيء لنا الطريق. أحجم سيزيف وفكر مليا. في الصعود إلى ضريح تروتسكي مررنا بمشاجرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين المستوطنين. قلت لسيزيف فلتجعل من نفسك اليوم أعمى. دعنا إلى ما نحن إليه ماضون ودعهم وشأنهم المستوطنون.قال لا وكاد أن يتهور ويلقي عليهم بصخرته الضخمة. ومضينا تارة أدفع بها للأعلى كي أريحه قليلا وتارة يدفع بها هو دون كلل. في الطريق إلى ضريحك، قابلتنا دورية أردنية وطلبت منا التصاريح وبطاقة الأحوال والرقم الوطني. وبالنتيجة تم اعتقال سيزيف لعدم تحديد الهوية. أما أنا فقد كان يشاع بينهم أنني يهودي، لذلك تركت وشأني كي أكمل الطريق وحدي، ومازلت منذاك أغذ الخطى للأعالي حيث

الرفيق الأعلى والسماء الأعلى وتناقص الأوكسجين. ولما مررت ببعض السحب إليك يا إلهي تهت أربعين عاما قبل أن أكتشف نفسي في مستشفى للأمراض العقلية. تأخرت كثيرا، نعم، ولم أذهب للتعزية بالحكيم في يوم ثلجي، نعم، ولم أحاول تكفيل سيزيف أو انتداب محام له، نعم . فقد لم يتبق من العمر الكثير ويتوجب عليّ المسير. تماما كما لو كنت آخر من تبقى من الجيش الأحمر. وأقول والقلب يلهث بالصعود: الله أكبر.. الله أكبر، والدمع بعيني أغذ الخطى، لعلي على ضريحك أكتب مرثية، يا باني الجيش الأحمر.

عمان ومكسيكو سيتي

2008/7/8

تاريخ النشر: 11-03-2009

3- طبيب متجول
(مقطع قصصي من رواية)

طبيب نفسي خاص متجول لا يضع إشارة الهلال الأحمر ولا حتى الصليب الأحمر على سيارته أو أية إشارة تدل على أن السيارة عائدة لطبيب حتى بيطري. وعندما يصطف بسيارته على منحدر يترك مفاتيح السيارة بها ويغادرها دون أن تكون العجلات الأمامية موجهة نحو الرصيف إن وجد أو نحو الحائط حتى فيما لو تدحدلت لا تشكل خطرا على المارة والسيارات الأخرى الذاهبة والقادمة باتجاهين متعاكسين أمام ثانوية زرقاء للبنات

وبجوارها مسجد، جعفر. حسنا، السيارة موديل قديم تدعي مربية فاضلة جدا أن أبوابها لا تفتح (حرصا على المرضى والزبائن) لكن المربية الفاضلة لم تقل لنا كيف دخلت وكيف خرجت ما دام أبواب سيارة الطبيب جدا لا تفتح.

وما دام الطبيب النفسي حريص على نفسيات العباد فلا يهمه بالتالي أجسادهم وأرواحهم لذلك عندما غادر سيارته لم يقم بوضع حتى حجر صغير أمام العجلين الأماميين أو أحدهما وبخاصة المتجه نحو وسط الشارع الفرعي على المنحدر المواجه لثانوية البنات دوز دوغري تحته. وإذا عرفنا أن الطبيب اصطف بسيارته عكس السير أيضا أي على الجهة اليسرى للشارع فهذا دون مقدمات أردني أصلي من ذوات أل التعريف بعشيرته أي أنه معصوم عن الخطأ في المراكز الأمنية والطبية والنقابية و القضائية. فوجئ الطبيب بـ(مريض نفسي)، كما يدعي، يختطف سيارته في وضعها المذكور بمن فيها لتوصيله لمركز أمن الحسين في حي رمزي ولكن صراخ المربية الفاضلة وهي تطلب النجدة من الشعب الباسل جعله يتوقف على دوار معصوم. يا إلهي ويا لها من بينة أمام القضاء. فالطبيب أبلغ عن سرقة سيارته مركز أمن المدينة في الزرقاء حسب التخصص. لا بأس فالطبيب يعرف باختصاص مراكز الأمن أكثر من اختصاصه في الطب. ومن نقطة انطلاق، من لم يجد سيارة تقله أو هاتف لحيث يشتكي أو يطلب النجدة، حتى دوار معصوم لم يتواجد للأسف رجل أمن واحد لا مدني ولا عسكري. فالشعب

كله خفر ولكنه خفر مشكل حسب اسم العائلة والعشيرة. خلال المسافة ما بين تحريك السيارة من وضع غير آمن ويشكل خطراً على الناس إلى دوار معصوم المكتظ بالزعران والسكران والهذيان والشعبان والشبعان والتعبان من الناس صغاراً وشيباً وشباباً وشياباً كانت الأم والمربية الفاضلة من مقعدها الخلفي تدك بقبضة يدها رأس العدو الصهيوني السارق المارق والمريض النفسي الذي يقوم باختطافها ليس من المدرسة حيث تدرس ولا من منزلها حيث تتيس ولكن في سيارة كانت في وضع يثير الشبهة أمام منزلها كما سوف يتبين لاحقا. ضرب وصراخ وصراخ وضرب والقيادة الصلبة مستمرة في التوجه لمركز البوليس الذي كانت هي قد دشنته بأول قضية كيدية صيف عام 1993 . قبضة حديدية نعم تدك رأس تروتسكي المصمم على أخذها كبينة إلى الشرطة بحيث لو صادفته دورية لتوقف فورا ليقول لهم خذوا ما لم يقم به جهازكم الأمني منذ 1993 حتى 2008 رغم كل اختصاصاته ورواتبه وتقاعداته. وهي أيضا كان باستطاعتها أن تقول أيضا خذوا ما عجزتم عن علاجه واعتقاله إنه العدو الصهيوني الذي يضرب غزة كل يوم وغزة لا حول لها ولا قوة. لكن لم يكن باستطاعتها أن تقول لهم أنه طليقي وأب أولادي الذي لذت به واتصلت به كي يأتي من عمان إلى الزرقاء لاختطافي ولو مرة كي أحتفل بعيد الحب.ولا كان بمقدورها أن تقول لهم أنه استاذي وقد ذهلت كيف يقود السيارة بهدي قلبه وبصيرته وقد أوقعت عن عينيه نظارته الطبية لعله يرتكب جريمة تعيده إلى المؤبد الذي فشلت بتنسيبه له قبل 15 سنة عندما نسبت له تهمتين لعل واحدة

منهما تزبط: الأولى شروع بالقتل العمد مكرر ثلاث مرات والثانية المرض النفسي الذي لا شفاء منه فأنا المرأة والطبيبة والشرطي والقاضي ولا أريد أن يبقى على قيد الحياة فقط لأنه غير معجب بمؤخرتي. لا، وهل تقول لهم ذلك؟ فهذا طبعا عيب حتى للطبيب النفسي لن تبوح به. وهل تقول لهم أنها عندما أوقعت عن وجهه نظارته قالت « الحمد لله»؟ لا، عيب، فهي اكتشفت مؤخرا أنه لو لم يقد السيارة بمهارة محترف، وهو الذي درّبها على القيادة بسيارته، لاندلقت تلك السيارة وهي بها في سيل الزرقاء قبل تحويله لمعلم سياحي. البواسل في الطريق إلى دوار معصوم هبوا لوا معتصماه كي ينقذوا غزة التي تستجير وتصرخ. أحدهم حمل صاروخا بيديه وهشم الزجاج المحاذي لوجه تروتسكي. ورغم ذلك لم يتوقف مؤلف الثورة الدائمة وليس «البحث عن مساحة» رغم صراخ من اشترت شقة وأرضا وليس مجرد عثرت على مساحة. لقد اختلط على المحقق الأمر في المركز: فتلك أصولها أصلا أصلا من غزة ولكنها الآن أردنية والإبن ابنها الراكض هلعا لانقاذ أمه وقتل أبيه من نابلس أما تروتسكي الذي في القفص والمشتكى عليه بسلب الحرية فهو من جنين. إلى الجحيم فكلهم أصلا أصلا من فلسطين. أما الطبيب المتجول في الحارات والأزقة فإنه وصل لاستلام سيارته فقط وما على النبي المنبوذ إن هو صرخ أو استنجد أو طالب القاضي المتدرب بجلب المتسبب بكل هذا إلا أن يقوم بتصليح السيارة أولا فالأردن أولا ومن ثم يقوم بالذهاب للاعتذار منه أنه لم يقصد الشكوى عليه بل على ابنه وفلذة كبده ووطنه غزة ـ فلسطين الذي أجبر على طلاقه كي يحصل على

وظيفة لبناء مستقبل الأردن ولربما استضافه أصلا أصلا بحقنة مهدئة فهو ليس أكثر من مريض نفسي آخر وبالتالي زبون آخر وإلا كيف نبني الأردن الجديد ونقاوم الوطن البديل. أما الزبون الأول للطبيب المتجول فإنه ما يزال في غيبوبة ولم يستيقظ كي يقول كلمته بعد.

4- يو ما ما

يوما ما، عندما أتخرج وأشتغل وأسدد لوالدتي مصاريف تعليمي ولوالدي أيضا النفقة الشهرية التي ظل يدفعها في المحكمة وهو بلا عمل، يوما ما عندما أنهي تعليمي الجامعي في الزرقاء أيضا وفي الجامعة الهاشمية تحديدا، سأجلس إلى ركن صغير كي أكتب قصة قصيرة أهديها إلى أغلى ما لا يملك والدي. إلى فاطمة، لا لا لن أكون عديمة الشخصية كي لا أنادي إلزا باسمها. نعم أهديها إلى إلزا التي كانت ولا تزال مربيتي الأولى ولذلك أنا تفوقت. بعد ذلك سأجعل الحقير كما أسمته إلزا يعرف أنه لم يكن جديرا أصلا بمجرد مشاهدة والدي ومشاهدتنا شخصيا. ولربما أخذته عند ذاك على قدر تفكيره وابتدأت بطريقة منطقية مناقشته: سأسأله، ما هو تشخيصك يا حضرة الدكتور لحالة (المريضة) وسيقول: فصام وجداني. حسنا، سأقول. فالإبنة الكبيرة رغم أنك صغير لديها عاطفة طبيعية تجاه والدتها وتجاه أبيها وما دام الاثنان مطلقان من بعضهما البعض والأم مصرة على استخدام ابنتها للانتقام من الرجل فإنه كان من الواجب المهني لك أن

لا تجاري من تدفع لك أجورك في معتقداتها حول طليقها بل وأن تعالجها من أوهامها المرضية تلك. وما دمت تدعي أنك الطبيب المعالج لأختي الكبيرة وأنت صغير بالطبع وستبقى، فإن إشعار والد مريضتك بالفصام الوجداني يصبح ضرورة أخلاقية قبل أن تكون طبية لأن والد المريضة أصبح جزءا من العلاج أيها الغبي، لا، قد لا أقولها لأنه متخلف، بل يحتاج لكلمة لم أتعلمها بعد من والدي لأنني محرومة منه، لوصف هذا الكائن . ويوما ما سأقول له: هل تتذكر ما تفوهت به للبوليس وأنت تذهب لاستلام سيارتك: ملفه بالفحيص. ملف من أيها النذل الأردني أصلا أصلا؟

ملف الكاتب الفلسطيني أيها الحقير؟ وهل تراه يحمل هوية شخصية من دائرتك أيها النذل؟ والدي يسميها بطاقة أحوال ويسخر منها لأن أحواله اليوم غير بالأمس ولن تكون في الغد بمثل أحوال فصيلتك. يوما ما يا أختي لن نبكي في الغربة، يوما ما يا أختي سنقول للعالم من نحن من هو أبانا ومن هي أمنا. يوما ما سيعرف العالم أن أبانا إيل وأمنا الثورة. يوما ما يا أختي سوف نكنس من تاجر بقضيتنا أو شيد دولة من عذاباتنا إلى مزبلة التاريخ. يوما ما يا أختي سوف نجلس أنا وأنت نضع الوردة على الضريح، يوما ما يا أختي سوف نريح ونستريح . وبودي الآن وأنت نائمة أن أشرب شربا تلك الحقنة، فأمنا متعبة ولا وقت لديها للتحاور معنا، فالبوليس هو الطاعون والطاعون هو البوليس، بزي الطب أو المحاماة أو بزي القضاة أو المحاباة كان أو ماكان من التأسيس حتى التفليس. يوما ما سأقول لك ما لم

يقله أخونا الوحيد في غدنا الجديد « أنني لم أشعر لحظة واحدة في حياتي أنها مريضة، بل هي الكبيرة، وستظل كبيرة.» أيها الطبيب المتجول الذي يفضح مرضاه ويتوقف عن العلاج إن لم نحن بقوت يومنا نقدناه، ما أحقر منك إلا المحامي الذي يعتبر الشيوعية تهمة والعبقرية جنون. يوما ما

تاريخ النشر
2009-02-22

5- النهر تائهاً عن مجراه

إهداء: إلى ترودي مان .. مرة أخرى

الحب في زمن «الكوليرا» أقوى من الفلسفة، أرحم من الموت. لكأنما تسقط على السطر آنية زجاج رخيص من فاترينة «تاريخ الأدب» و«قضايا الشعر المعاصر» ـ مع الإعتذار لنازك الملائكة ـ التي نظمت قصيدة في مجلة أدبية شرقية قبل نصف قرن لثور كفّ عن الانطلاق و كفّ عن الحب ونضب فيه الشعر و ما عاد يستعاد في الأواني المكسورة. الحب في زمن الكوليرا ليس بإشكالية الشعر الحر بعد أن غادره السياب وعلي أحمد باكثير وروميو وبعد أن انتقلت جولييت للعمل في ملهى ليلي لفندق بخمس نجوم. الحب في زمن الكوليرا اختلاط لمشهدين: شرقي يدخل الغرب في منظومة تفكيره وفي وجدانه قبل أن يذهب للغرب، وغربية تغادر مشهدها لتشهد الشرق

فيه رجلاً يموت في مشهده لتحيا هي كغربية «ملتبسة» في ضوء عينيه، فيكف الحب عن كونه التباس في علاقات النهب الاستعماري وعلاقات السطوة للغالب على المغلوب وعلاقات التفريخ البيولوجي والتفريخ الميثولوجي لأساطير ماتت وأخرجت من توابيتها قبل الدفن: سيزيف وعشتار وتموز في أزمة المياه والتصحر والجفاف. الحب ليس صيفاً وليس شتاءً وليس شراءً و ليس بيعاً في العاصمة أو وسط البلد. إنه «وسط البلد» عندما تغادر المحبة ـ بضم الميم و كسر الحاء ـ عرض الباليه في العاصمة الغربية، لتبحث عن معنى كلمات دافئة لرجل في المشهد و خارجه في آن واحد. فتغادر الباليه إلى عامة الشعب في قاع البلد وتكف عن هفهفة شعرها الكستنائي المنثور على خده الأيمن هامسة بالأسئلة القليلة النادرة، والقليلة الكافية للحب و التفاهم و استنبات الأسئلة و حلم ربيع الأجوبة. الحب، هي قابضة على توحده في المشهدين. و احتياجه لها إليه من جورج طرابيشي أو محمد كامل الخطيب. فلا هو بحاجة لأن يتذكر للأول: «شرق وغرب، رجولة وأنوثة» أيتها الأستاذة رضوى عاشور زوجة الشاعر و رفيقة طعام الغداء في بودابست. لماذا هذه الثرثرة الثقافية إستاذتي نازك؟ استاذة تلميذ جامعي عاق وما يزال لأنه قرأ فعاش «في السوق القديم» .. الذي لم يتم تسجيله باسم بدر شاكر السياب و لا لإسمه كنّ الجامعيات اللعوبات. لماذا هذا النأي عنك و بانتظارك، ترودي، في المشهد الثقافي العربي المعاصر؟ إليك إذن في «أحدب نوتردام». فليس مهماً ما لم أسأله عنك لك أو فيك إن كنت من طولكرم حقاً أم من أمستردام أم نوتردام أم تقيمين في لندن. فها أنا أقيم

في الزرقاء أو عمان أو مأدبا أو الكويت أو لندن لا فرق. فالمهم اختلاط المشهدين دون قصد في لحظة وداع لم تتم إلا بعد الاستئذان. لكأنما يحتاج العناق بين وردتين غريبتين لكل هذا الحذر من تنامي البؤس فوق الشفتين. أو أن يعشوشب شعرك فوق ملح صيف الخد من ربيع زاهر وودي. هل كنت سعاد أم يعاد أم سهاد في ما أرى من تموج في بحر اللاذقية على شاطئ يوحد مدينتين، اللاذقية و حيفا؟ و يكسر الغياب على كلمتين و ينثر السؤال بذاراً في وجه الصحراء الزاحفة حد الركبتين . لولا بساطتك التي تتحول في امتداد الشهور إلى بلور كما لم يخطر ببال فيلسوف كأرنست فيشر، لا .. لم أسأل نفسي في الغياب المفتوح على فوهة الموت العمياء عن أرسطو و لا عن بريخت و لا عن العمل الذي تحملينه فكرة أو مشروعاً للعرض القادم في سنة قادمة قد تأتي و قد لا تأتي. فكل الأسئلة باتت قربك متقادمة. فهل أسميتك الدفء الإنساني فقط و الحرارة في العينين؟ لا أدري ..

الحب في زمن الكوليرا أن لا أدري و يحتاج ما يحتاج غير الكتابة و الإخراج المسرحي و ينضجه الغياب على مهل ما بين انتحارين. انتحار الضحية في مشهد القاتل فوق صورته النقيضة في مشهد الآخر. و انتحار القاتل في مشهد المقتول على صورة ضميره النابت تواً كفراشة فوق ربيع محتمل. و التحام الصورتين إذ لا تسألان النهايات عن بداياتها و لا تندب حضارتين. فالرجال جوف هناك و في يباب ال «هنا» و الحب التقاء مسافتين.

الحب في زمن اليباب ثورة أحياناً و أحياناً هديل حمامتين من ذكر غير قابل للطيران و من أنثى تفرد في الهديل جناحيها في همستين. الحب ما فكرنا

به ذات يوم و لم تدركه أعمارنا. الحب سلام دافئ لا يغادر أصابع اليدين. الحب انتظار عاشقين أو ضياع نجمتين. في زمن الكوليرا تتبادل الأمكنة و المواقع بؤس الرأسمال في نكتة أو دمعة أو همسة قبل أن تتبادله الشفتين. و الحب احتمال انكتامه سراً ما بين النحلة و الوردة وما بين الفراشة و الضوء و إحتمال قوة خفقاته في ساعة عمياء من الوقت لا تحرك عقربين . الحب نبض الوقت في قلوبنا فوق صمت غابة من الموتى و انبثاق داخل جلمود صخر لنبع عين. و الحب غامض و غائم تراه بالقلب و لا تلحظه عين. الحب اندفاع كوكبين نحو التلاقي أو في اتجاهين متباعدين. الحب التحام نجمتين خارج ما يرسمه النظام العالمي الجديد من خطط أو عدد. أقوى من الفلسفة و أعمق من البحر . ربما كنهر تائه عن مجراه أو سواه، لكنه سعيد في تجدده في بريق عين.

تاريخ النشر
2005-05-26

من القصص التي لم تجمع للكاتب في أي من إصداراته:

1- غيوم في السماء 1972 نشرت في مجلتي الجامعي والنهضة الكويتيتان ـ فائزة بالجائزة الأولى لمسابقة القصة القصيرة في جامعة الكويت وأثارت معركة نقدية وسياسية حال نشرها وتقديم الدكتورعرسان الراميني قراءة نقدية لها رد عليها الدكتور أحمد الطحان والكاتبة فاطمة الناهض في نفس المجلة خلال ثلاثة أعداد متتالية.

2- شجرة شوك 1972 ـ الرسالة الكويتية صيف 1972بعد استشهاد الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني بشهر تقريبا وهي أول قصة تنشر للكاتب.

3- الداخل والخارج 1973 ـ مجلة الجامعي الصادرة عن جامعة الكويت

4- أوراق الخريف 1973 ـ القصة الفائزة بالجائزة الأولى لمجلة مرآة الأمة الكويتية.

5- زهور تحت المطر 1973 ـ مجلة الجامعي الشهرية.

6- نشيد الأناشيد 1973 ـ مجلة الجامعي ـ عدد طه حسين.

7- الريح والشجر 1974 ـ مجلة فلسطيننا من إصدار اتحاد طلبة فلسطين وأخرجها ناجي العلي.

8- السبورة والطائرة 1974 مجلة البيان الشهرية الكويتية ـ تصدر عن رابطة الأدباء الكويتية

9- ..... 1974 ـ جريدة السياسة اليومية الكويتية.

10- أم طافش تزور المدينة والعجوز يروي أشياء عجيبة ـ جريدة الوطن اليومية الكويتية أو الهدف الأسبوعية في الملحق الثقافي لكل منهما ـملحق الثلاثاء للوطن وملحق الخميس للهدف.

11- مؤامرة 1983 ـ الطليعة الكويتية ـ ويومية يمنية أعادت نشرها بعنوان ـ مؤامرة يا ناس ـ وقد نشرت في الكتاب الذي أصدرته جمعية المعلمين الكويتية متضمنا نشاطاتها الثقافية السنوية مع تعليق نقدي للكاتب المصري أبو المعاطي أبو النجا الذي تولى تقديم دراسة نقدية في قصص الأمسية القصصية التي شارك فيها الكاتب مع الروائي والقاص اسماعيل فهد اسماعيل والقاصة والروائية ليلى العثمان بدعوة من جمعية المعلمين الكويتية منتصف الثمانينيات.

12- لأجل عيون مريم 1984 الوطن الكويتية.

13- شنكل شناكل 1992 الوطن الكويتية.

14- هموم الجدار رقم 5 ـ **رواية قصيرة** نشرت على حلقات في مجلة الجامعي عام 1974

15- «غيمة النار» **رواية قصيرة** لم تنشر ولم تطبع وقد اطلعت الكاتبة فاطمة الناهض عليها بعد عودتها من الدراسة في الولايات المتحدة لتلتحق بجريدة الوطن الكويتية وقد كتبت الرواية بين عامي 1979/1978 وفيها استشراف مبكر لحرائق آبار النفط وخروج المقاومة الفلسطينية من بيروت صيف 1982

16- مجموعة قصائد نشرت في الوطن الكويتية وأسبوعية صوت الخليج خلال

فترة عمل الكاتب في كل منهما عامي 1977 - 1978 /1979

17- الشاي الأخير 1996 جريدة الأهالي الأردنية وجريدة المسائية الأردنية 1999

18- .... ذات الرداء الأحمر.... 1997 جريدة العرب اليوم الأردنية

19- ..... جريدة الزمان العراقية اللندنية 1999 - 2000

وتهيب حركة إبداع بكل من يعثر على نسخ منها أو يحتفظ بأعداد من المجلات والصحف المذكورة أن يبادر إلى الاتصال بنا أو بذوي الكاتب على عناوين حركة إبداع أو على البريد الالكتروني التالي:

www.nazmi.org

tayseernazmi@yahoo.com

00962 - 79 - 5646904